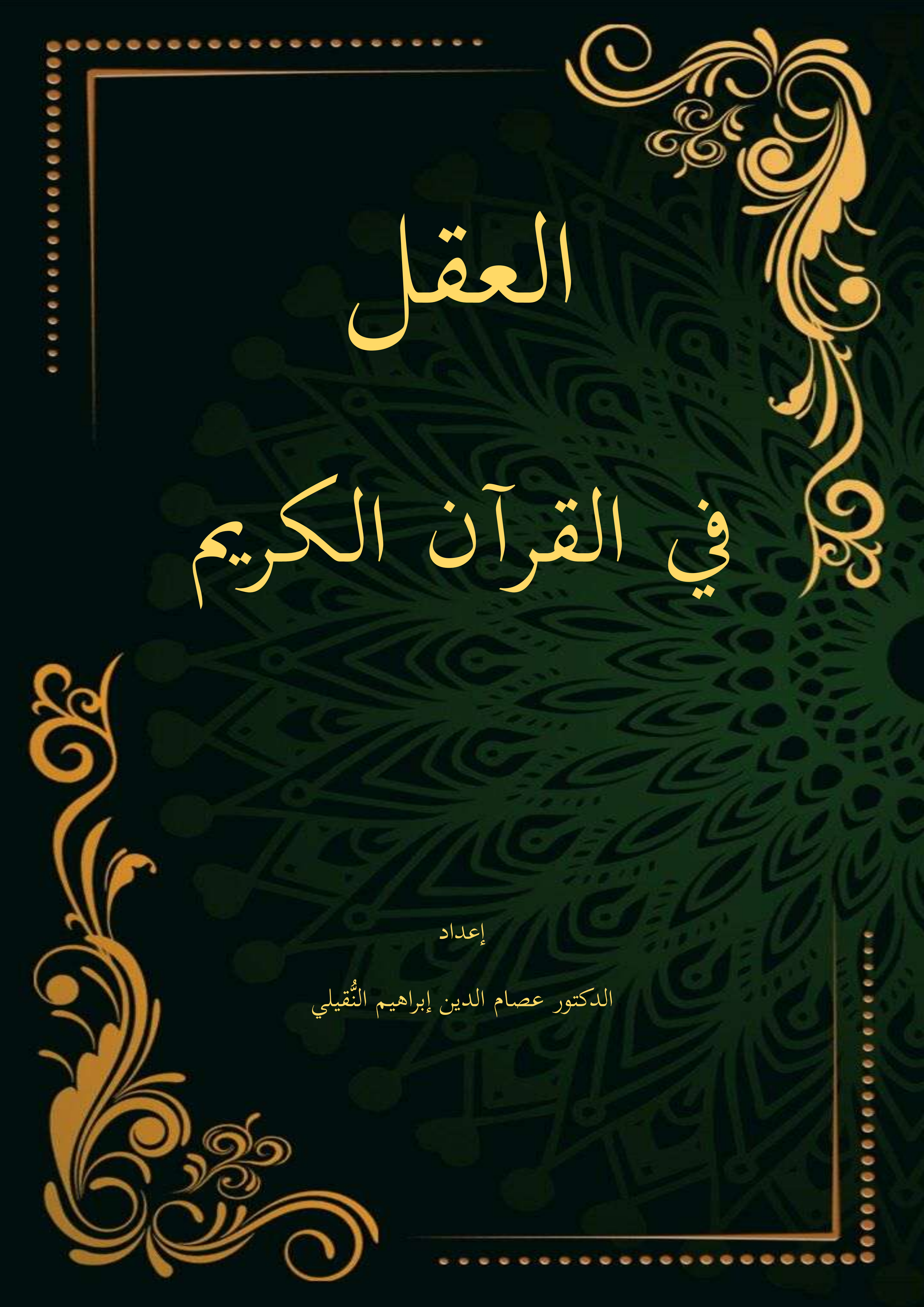


العقل

في القرآن الكريم

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

العقل

في القرآن الكريم

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــذرُ
واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ
فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــدرُ
ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى *كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعــــذِّرُ[1]

---

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".



{وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

[الرعد: 4].

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ

نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا﴾[النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ[1].

---

(1) أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهديِ هديُ محمدٍ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أتتْكم الساعةُ بغتةً – بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا – صبحَتْكم الساعةُ ومسَتْكم – أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه – من ترك مالًا فلأهلِه – ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ – وأنا وليُّ المؤمنين.

الراوي: جابر بن عبدالله، المصدر: صحيح الجامع، الرقم: 1353.

التخريج: أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.

وبعد:

لقد ميَّز الله تعالى البشر عن الحيونات بميزة العقل، وجعله مناطا للتكليف، وشرَّف الإنسان بالعقل تشريف، فشتَّان بين من يعقلون وبين من لا يعقلون، والعقل آلة التمييز التي يُميِّز بها بين الحق والباطل، والقبيح والحسن، لذلك اهتمَّ القرآن الكريم في مختلف مواضيعه بالعقل، بين خبر وطلب.

فقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى العقلَ فِي العديدِ منَ المواقعِ فِي القرآنِ الكريمِ بينَ مدحٍ لأهلهِ وذمٍّ للَّذينَ لَا يعقلونَ، وقدْ وردَ لفظُ العقلِ بصيغةِ الفعلِ فِي القرآنِ في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدرٍ مطلقًا، وكلُّ أفعالِ العقلِ تدلُّ علَى عمليَّةِ الإدراكِ والتَّفكيرِ والفهمِ لدَى الإنسانِ، ويمكنُ حصرُ هذهِ الأفعالِ بمَا يلِي:

1) لفظُ العقلِ:

أ) وردَ فعلُ العقلِ بصيغةِ "تعقلونَ" فِي أربعٍ وعشرينَ موضعًا فِي القرآنِ؛ منهَا قولهُ تعالَى:

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة: 242]، وقولهُ تعالَى:

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[يوسف: 2].

ب) وورِدَ بصيغةِ "يعقلونَ" فِي اثنينِ وعشرينَ موضعًا؛ منهَا قولهُ تعالَى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171].

ج) وورِدَ بصيغةِ "يعقِلُهَا" مرةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: 43].

د) وورِدَ بصيغةِ "نعقلُ" مرةً واحدةً فِي قولِهِ تعالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

هـ) وورِدَ بصيغةِ "عقَلوهُ" مرَّةً واحدةً فِي قولِهِ تعالَى: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: 75].

2) وُرودهُ بلفظِ الألبابِ وهوَ جمعُ لُبٍّ:

وقدْ وردتْ كلمةُ "الألبابِ" فِي القرآنِ فِي صفةِ أصحابِ العقولِ ستَّ عَشْرة مرةً فِي القرآنِ الكريمِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة: 179]، وقولهُ تعالَى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[البقرة: 269].

3) ورودهُ بلفظِ النُّهَى الدالِّ علَى العقلِ:

وقدْ وردتْ أيضًا كلمةُ "النُّهَى" فِي القرآنِ لتدلَّ علَى أصحابِ العقولِ أيضًا، مرَّتينِ فِي القرآنِ؛ وهمَا قولهُ تعالَى: {وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 54]، وقولهُ تعالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 128].

4) ورودهُ بلفظِ القلبِ:

وقدْ وردَ فِي القرآنِ الكريمِ لفظُ "القلبِ" ليدلَّ علَى العقلِ أيضًا فِي إحدَى دلالاتهِ، وذُكِرَ القلبُ عامَّةً فِي القرآنِ فِي مائةٍ وأربعٍ وأربعينَ موضعًا، قالَ تعالَى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}[الأعراف: 179]، وقالَ سبحانهُ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق: 37].

5) ورودهُ بلفظِ الحِجْرِ:

وردَ العقلُ بلفظِ "الحِجْرِ" ليدلَّ علَى العقلِ مرَّةً واحدةً فِي القرآنِ الكريمِ، قالَ تعالَى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}[الفجر: 5].

6) وُرودهُ بلفظِ الفكرِ الذِي هوَ نتاجُ العقلِ:

أ) وردَ بصيغةِ "فكَّر" مرَّةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى : {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[المدثر: 18، 19].

ب) وورِدَ بصيغةِ "تتفكَّرُوا" مرَّةً واحدةً أيضًا فِي قولهِ تعالَى: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}[سبأ: 46].

ج) وورِدَ بصيغةِ "تتفكَّرونَ" ثلاث مرَّاتٍ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[البقرة: 219].

د) وورِدَ بصيغةِ "يتفكَّرُوا" مرَّتينِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ}[الروم: 8].

هـ) وورِدَ بصيغةِ "يتفكَّرونَ" إحدَى عشرة مرَّةً، منهَا قولهُ تعالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الرعد: 3][1].

والنَّاظرُ لمَا سبقَ يرَى أنَّ لفظَ القلبِ باختلافِ ألفاظهِ جاءَ بينَ مدحٍ وذمٍّ.

وهذا يدل عظيم شأن العقل عند الله تعالى، وعليه وجب علينا تعريف العقل وبيان فضله، وثمرات استعماله، ومهالك إهماله، وكل هذا سنتناوله في هذا المبحث بإذن الله.

وكتب

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

---

(1) شبكة الألوكة "العقل في القرآن الكريم" مقالة: فهمي قطب الدين النَّجار.

{معنى العقل}

العقلُ لغةً:

أصلُ مادَّةِ (عقل) تدلُّ علَى حُبسةٍ فِي الشَّيءِ أوْ مَا يقاربُ الحُبسةَ، منْ ذلكَ العقلُ، وهوَ الحابسُ عنْ ذميمِ القولِ والفعلِ[1].

والعقلُ أيضًا: نقيضُ الجهلِ، يقالُ: عَقِلَ يعقلُ عقلًا فهوَ عاقلٌ، والمعقولُ: مَا تعقِلُهُ فِي فؤادكَ، ويقالُ: هوَ مَا يُفهمُ منَ العقلِ[2].

وأصلُ العقلِ: الإمساكُ والاستمساكُ، كعقلِ البعيرِ بالعقالِ، وعقلِ الدَّواءِ البطنِ[3].

قالَ الزبيديُّ: العقلُ هوَ العلمُ بصفاتِ الأشياءِ منْ حسنهَا وقبحهَا، وكمالهَا ونقصانهَا[4].

وهوَ مأخوذٌ منَ عقالِ الدَّابةِ، فكذلكَ العقلُ يمنعُ صاحبهُ منَ الكفرِ والجحودِ[5].

العقلُ اصطلاحًا:

عرَّفهُ ابنُ عطيَّةَ بأنَّهُ: الإدراكُ المانعُ منَ الخطأِ[6].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦٩/٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ٦١٧/١.

(2) انظر: العين، الفراهيدي، ١٥٩/١، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، ٩٣٩/٢، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي، ٢٠٥/١.

(3) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧٨.

(4) انظر: تاج العروس ١٨/٣٠.

(5) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٨٨/١.

(6) انظر: المحرر الوجيز، ١٣٧/١.

ويقولُ الأصفهانِي: هوَ القوَّةُ المتهيِّئةُ لقبولِ العلمِ، ويقالُ للعلمِ الذِي يستفيدهُ الإنسانُ بتلكَ القوَّةِ عقلٌ[1].

وقيلَ: إنَّ العقلَ هوَ المدركُ للأشياءِ علَى مَا هيَ عليهِ منْ حقائقِ المعانِي[2].

وأُسمِيَ العقلُ عقلًا: لأنَّهُ يعقلُ بهِ مَا ينفعهُ منَ الخيرِ، وَ ينعقلُ بهِ عمَّا يضرُّهُ[3].

فالعقلُ يُميَّزُ بهِ الحقُّ والباطلُ، ويمنعُ صاحبهُ منِ ارتكابِ مَا يضرُّ.

---

(1) انظر: المفردات ص٥٧٧.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/٣٧٠.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١.

ألفاظُ ذاتُ صلةٍ بالعقلِ:

اللُّبُّ:

اللُّبُّ لغةً:

لُبُّ: لُبُّ كُلِّ شيءٍ: داخلُهُ، ولُبابُهُ أيضًا، وكذلكَ الخالصُ الخيارُ منْ كلِّ شيءٍ[1]، واللُّبُّ: خُلاصةُ الشَّيءِ وقلبُهُ، ولُبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ، وشيءٌ لبابٌ: خالصٌ.

وقالَ ابنُ جنِّي: هوَ لبابُ قومهِ، وهمْ لبابُ قومهمْ، وهيَ لبابُ قومهَا، ولبيبٌ: عاقلٌ ذُو لبٍّ[2]. لببَ: الألبابُ: العقولُ[3].

اللُّبُّ اصطلاحًا:

أطلقَ هنَا علَى عقلِ الإنسانِ؛ لأنَّهُ أنفعُ شيءٍ فيهِ، ولبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ[4]، وقيلَ: هوَ مَا زَكَى منَ العقلِ، فكلُّ لبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[5].

الصِّلةُ بينَ العقلِ واللبِّ:

كلُّ لبيبٍ لهُ عقلٌ حصيفٌ، يعقلُ بهِ خالصَ الأمورِ وأنفعهَا.

---

(1) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد،٢/٤٥١.

(2) جمهرة اللغة، الأزدي ١/٧٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/٣٦٦، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١/٧٢٩.

(3) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي،١/٢٧٤.

(4) لسان العرب، ابن منظور،١/٧٢٩.

(5) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٣٣.

النُّهَى:

النُّهَى لغةً:

نَهَيَ: النُّونُ والهاءُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ علَى غايةٍ وبلوغٍ[1]، و النُّهيةُ: العقلُ؛ لأنَّهُ ينهَى عنْ قبيحِ الفعلِ والجمعُ نُهَى[2]، وهوَ الزَّجرُ عنِ الشَّيءِ[3]، وجُعلَ اسمًا للعقلِ الذِي انتهَى منَ المحسوساتِ إلَى معرفةِ مَا فيهِ منَ المعقولاتِ[4].

النُّهَى اصطلاحًا:

النُهَى اصطلاحًا لهُ نفسُ المعنَى اللُّغوي، فقولهُ تعالَى: {وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 54]، فسَّرهُ القرطبِي بقولهِ: (إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لأولِي النُّهَى) قالَ لهمْ ذلكَ؛ لأنَّهمْ الذينَ ينتهَى إلَى رأيهمْ، وقيلَ: لأنَّهمْ ينهونَ النَّفسَ عنِ القبائحِ[5].

وقالَ البغوِي: (لآياتٍ لأولِي النُّهَى) لذوِي العقولِ، واحدتهَا: نهيةٌ سمِّيتْ نُهيةً لأنَّهَا تنهَى صاحبهَا عنِ القبائحِ والمعاصِي.

قالَ الضحَّاكُ: (لأولِي النُّهَى) الذينَ ينتهونَ عمَّا حُرِّمَ عليهمِ[6].

وقالَ السَّعدي: النُّهَى، أيِ: العقولُ السَّليمةُ والفطرُ المستقيمةُ والألبابُ التِي تزجرُ أصحابهَا عمَّا لَا ينبغِي[7].

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٩/٥.

(2) المصدرالسابق.

(3) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٢٦.

(4) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ١٣٧/١.

(5) تفسير القرطبي.

(6) تفسير البغوي.

(7) تيسير الكريم الرحمن، ص٥١٦.

الصِّلةُ بينَ العقلِ والنُّهَى:

العقلُ والنُّهَى مترادفانِ فبالعقلِ يُمْنَعُ الشَّخصُ عنِ ارتكابِ المعصيةِ، وبالنُّهَى ينزجرُ وينتهِي عنِ المحرَّماتِ والمعاصِي.

الحجَا:

الحجَا لغةً:

الحاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ أصلانِ متقاربانِ، أحدهمَا إطافةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وملازمتهُ، والآخرُ القصدُ والتعمُّدُ[1]، الحجَا: السِّترُ والعقلُ[2]، و"حجَا": مفردٌ، الجمعُ أحجاءٌ، وأحجيةٌ: عقلٌ وفطنةٌ، منْ ذوِي الحجَا: ذكيٌ حكيمٌ[3].

الحجَا اصطلاحًا:

الحجَا هوَ ثباتُ العقلِ منْ قولهمْ: تَحَجَّى بالمكانِ إذَا أقامَ فيهِ[4].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجَا:

بالعقلِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ، وبالحجةِ يقوَى علَى الاستنباطِ وإظهارِ المعانِي.

الذِّهنُ:

الذِّهنُ لغةً:

الذَّالُ والهاءُ والنُّونُ أصلٌ يدلُّ علَى قوَّةٍ، وهوَ الفطنةُ للشَّيءِ والحفظُ لهُ[5].

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس،٢/١٤١.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/١٥٩.

(3) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار – ١/٤٥١.

(4) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٨٥.

(5) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/٣٦٣.

الذِّهنُ اصطلاحًا:

هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ[1]، وقيلَ: هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، وهوَ الاستعدادُ التَّامُ لإدراكِ العلومِ والمعارفِ بالفكرِ[2].

الصِّلةُ بينَ الذِّهنِ والعقلِ:

بالعقلِ والذِّهنِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ وإدراكُ العلومِ والمعارفِ، وذلكَ باشتراكِ الحواسِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

الحجرُ:

الحجرُ لغةً:

الحاءُ والجيمُ والرَّاءُ أصلٌ واحدٌ مطردٌ، وهوَ المنعُ والإحاطةُ[3].

الحجرُ اصطلاحًا:

هوَ قولهُ تعالَى لِذِي حجرٍ أيْ: عقلٍ ولبٍّ، فمنْ كانَ ذَا عقلٍ ولبٍّ علمَ، قالَ الحسنُ: لِذِي حجرٍ، أي: لِذِي حلمٍ، وقالَ أبُو مالكٍ: لِذِي سترٍ منَ النَّاسِ، وقالَ الجمهورُ: الحجرُ: العقلُ. قالَ الفرَّاءُ: الكلُّ يرجعُ إلَى معنًى واحدٍ، لِذِي عقلٍ ولِذِي حلمٍ ولِذِي سترٍ، الكلُّ بمعنَى العقلِ. والعربُ تقولُ: إنَّهُ لذُو حجرٍ إذَا كانَ قاهرًا لنفسهِ ضابطًا لهَا[4].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجرِ:

صاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السويَّةِ يكونُ ذَا حِجْرٍ، حيثُ يمنعُ صاحبهُ ويحجرهُ عنِ الوقوعِ فِي مَا لَا يحلُّ لهُ، ولَا يليقُ بهِ منَ القبائحِ.

---

(1) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٧١.

(2) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري،ص٨٥.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس،١٣٨/٢.

(4) فتح القدير، الشوكاني، ٥٢٨/٥.

{نعمةُ العقلِ}

إنَّ منْ أفضلِ نعمِ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ نعمةُ العقلِ، فلولَا العقلُ لمَا عَرَفَ الإنسانُ دينَ الإسلامِ والنبوَّةَ، والخيرَ والشرَّ، والحقَّ والباطلَ، والمعروفَ والمنكرَ.

قالَ تعالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء: 70].

فاللَّهُ سبحانهُ وتعالَى فضَّلَ بنِي آدمَ علَى غيرهِمْ منَ الجماداتِ والحيواناتِ، والنَّباتاتِ بهذَا العقلِ.

فإذَا فقدَ الإنسانُ العقلَ السَّليمَ الذِي يقودهُ إلَى الخيرِ ويبعدهُ عنِ الشرِّ، فقدْ أصبحَ كالبهيمةِ التِي تأكلُ وتشربُ ولَا تعقلُ شيئًا، بلْ إنَّهَا خيرٌ منهُ كمَا فِي قولهِ تعالَى:

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[الأعراف: 179].

قالَ ابنُ حزمٍ: وَحَدُّ العقلِ ينطوِي فيهِ فعلُ الطَّاعاتِ والفضائلِ، واجتنابِ المعاصِي والرذائلِ، وقدْ نصَّ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ علَى أنَّ منْ عصاهُ لَا يعقلُ.

قالَ تعالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

وَحَدُّ الحمقِ: استعمالُ المعاصِي والرذائلِ، وهوَ ضدُّ العقلِ، ولَا واسطةَ بينَ الحمقِ والعقلِ إلَّا السُّخفُ[1].

---

(1) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٥٨.

وأفضلُ مواهبِ اللهِ لعبادهِ العقلُ، ولقدْ أحسنَ الذِي قالَ[1]:

أفضلُ قسمِ اللهِ للمرءِ عقلـــــهُ * فليسَ منَ الخيراتِ شيءٌ يقاربهُ

إذَا أكملَ الرَّحمنُ للمرءِ عقلـــهُ * فقدْ كملتْ أخلاقهُ ومآربــــــهُ

يعيشُ الفتَى فِي النَّاسِ بالعقلِ إنَّهُ * علَى العقلِ يجرِي علمهُ وتجاربهُ

يزيدُ الفتَى فِي النَّاسِ جودةُ عقلهِ * وإنْ كانَ محظورًا عليهِ مكاسبــهُ

قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[النور: 40].

وقدْ جُعِلَ للعقلِ نَظَرٌ وإدراكٌ ورؤيةٌ وإبصارٌ، وجعلَ لهُ أضدادُهُ منَ العمَى وغيرهِ، قالَ اللهُ تعالَى: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[الأعراف: 198][2].

إنَّمَا العاقلُ منْ وَحَّدَ اللهَ تعالَى وعملَ بطاعتهِ، وقالَ تعالَى حكايةً عنْ أهلِ النَّارِ: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10][3].

قيلَ لابنِ المباركِ: مَا خيرُ مَا أُعطيَ الرَّجلُ؟ قالَ: غريزةُ عقلٍ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أدبٌ حسنٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: صمتٌ طويلٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: موتٌ عاجلٌ[4].

وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: ... ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدتَ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ[5].

---

(1) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(2) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني، ص١٣٥.

(3) المصدر السابق ص١٣٦.

(4) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، فضل من استبرأ لدينه، ٢٠/١، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٩.

فإذَا آمنَ القلبُ، آمنتْ الجوارحُ بفعلِ المأموراتِ وتركِ المنهيَّاتِ؛ لأنَّ القلبَ أميرُ البدنِ، وذلكَ يدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّ القلبَ مَا كانَ كذلكَ إلَّا لأنَّهُ محلُّ العقلِ الذِي بهِ الإدراكُ والفهمُ.

وقدْ حشدَ القرآنُ الكريمُ عشراتِ الآياتِ القرآنيَّةِ الدَّاعيةِ إلَى استعمالِ العقلِ والتفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وآياتِ اللهِ القرآنيَّةِ، وجعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى التَّفكيرَ فريضةً إسلاميَّةً فقالَ تعالَى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: 44].

وقدْ خصَّ أصحابَ العقولِ الصافيةِ، والقلوبِ النيِّرةِ أولِي الألبابِ، وأصحابِ الفطرةِ السَّليمةِ بهذَا التفكُّرِ والتدبُّرِ، قالَ تعالَى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[آل عمران: 190].

وخَصَّ اللهُ بالآياتِ أولِي الألبابِ، وهمْ أهلُ العقولِ؛ لأنَّهمْ همُ المنتفعونَ بهَا، النَّاظرونَ إليهَا بعقولهمْ لَا بأبصارهمْ[1].

والواجبُ علَى المسلمِ أنْ يقومَ بالمحافظةِ عليهِ؛ كيْ يبقَى سليمًا بعيدًا عنِ الشُّبهاتِ التِي تتسبَّبُ فِي نقصِ الإيمانِ أوِ انعدامهِ كليَّةً، كذلكَ الابتعادُ عنْ تعاطِي كلَّ مَا يخامرُ العقلَ ويؤدِّي بالإنسانِ إلَى ارتكابِ حماقاتٍ أوْ جرائمَ هوَ والمجتمعُ فِي غنًى عنهَا، عدَا ذلكَ الأضرارُ الصحيَّةُ ومَا ينجمُ عنهَا منْ خسائرَ وأضرارَ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ تعودُ علَى الشَّخصِ وعائلتهِ وكذلكَ المجتمعِ.

لذَا فقدْ حدَّدَ الشَّارعُ الحكيمُ أمورًا لابدَّ منَ الابتعادِ عنهَا للمحافظةِ علَى العقلِ سليمًا منهَا، قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: 90].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.

{ثمارُ استعمالِ العقلِ}

أوَّلًا: الهدايةُ:

إنَّ القرآنَ هوَ كتابُ العقلِ، وأنَّهُ بأكملهِ دعوةٌ لتحريرِ العقلِ منْ عقالهِ، وأنَّهُ يدعونَا بعباراتٍ تختلفُ فِي أسلوبهَا وتتّحدُ فِي معناهَا إلَى استعمالِ العقلِ ووزنِ كلِّ شيءٍ بميزانهِ.

قالَ تعالَى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[الأنبياء: 66، 67].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعنِي: أليسَ لكمْ عقلٌ تعقلونَ بِهِ أنَّ هذهِ الأصنامَ لَا تستحقُّ العبادَةَ؟[1].

وقوله: (أَفَلا تَعْقِلُونَ) أنَّ منْ ليسَ لهُ ذهنٌ ولَا قوَّةٌ ولَا منفعةٌ ولَا مضرَّةٌ أنْ لَا تعبدوهُ[2].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أليسَ لكمْ عقلٌ تعرفونَ هذَا؟[3].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضلالِ والكفرِ الغليظِ، الذِي لَا يروجُ إلَّا علَى جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ؟[4].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: ألَا تتفكَّرونَ فلَا تعقلونَ قبحَ صنيعكمْ[5].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضَّلالِ والكفرِ الذِي لَا يدينُ بهِ إلَّا كلُّ جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ[6].

---

(1) لباب التأويل، الخازن، ٢٢٩/٣.

(2) تفسير السمرقندي، ٤٣١/٢.

(3) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، ١١٤/١.

(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٥١/٥.

(5) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٧٦/٦.

(6) التفسير المنير، الزحيلي، ٨٤/١٧.

قالَ تعالَى: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}[الزمر: 18].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيِ: المتَّصفونَ بهذهِ الصِّفةِ همُ الذينَ هداهمُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: ذَوُو العقولِ الصَّحيحةِ، والفطرِ المستقيمةِ[1].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: أرشدهمُ اللهُ إِلَى الحقِّ، وقولهُ: (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: أولُو العقولِ[2].

فقولهُ: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: لدينهِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيِ: العقولِ السَّليمةِ عنْ منازعةِ الوهمِ والعادةِ، وفِي ذلكَ دلالةٌ علَى أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النَّفسِ لهاَ[3].

وممَّا سبقَ نجدُ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى أكرمَ الإنسانَ بالعقلِ، وبهذَا العقلِ السَّليمِ اهتدَى لوحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فأكرمهُ اللهُ تعالَى بالهدايةِ والعلمِ، ممَّا زادَ تقواهُ وخشيتهُ للهِ تعالَى، وهذَا فضلٌ منَ اللهِ تعالَى ومنَّةٌ لذوِي العقولِ السَّليمةِ والفطرةِ الصافيةِ.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٩٠/٧

(2) تفسير السمعاني، ٤٦٤/٤.

(3) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣٩/٥.

ثانيًا: مطابقةُ العلمِ للعملِ:

منَ العارِ أنْ يكونَ الإنسانُ متعلِّمًا لأمرٍ معيَّنٍ، ويعلِّمهُ لغيرِه، وهوَ أولَى أنْ يقومَ بالعملِ بمَا يعلمُ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مادحًا منْ تعلَّم وعلَّمَ، أيْ: منْ عملَ بعلمهِ، فالإنسانُ العاقلُ هوَ منْ يقومُ بالعملِ بمَا يعلمُ، فعنْ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: "خيركمْ منْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمهُ"[1].

قالَ الحكماءُ: العقلُ رائدُ الرُّوحِ، والعلمُ رائدُ العقلِ، وحياةُ المروءةِ الصِّدقُ، وحياةُ الرُّوحِ العفافُ، وحياةُ الحلمِ العلمُ، وحياةُ العلمِ الفهمُ، وحياةُ الفهمِ العملُ، وحياةُ العملِ القبولُ[2].

وقالَ بعضهمْ: أفضلُ العقلِ معرفةُ الرَّجلِ نفسهُ، وأفضلُ العلمِ وقوفُ الرَّجلِ عندَ علمهِ[3].

قالَ تعالَى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[البقرة: 44].

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) قيلَ: أنَّ منْ وعظَ النَّاسَ يجتهدُ أن ينفذَ موعظتهُ إلَى القلوبِ، فإذَا خالفَ قولهُ فعلهُ كانَ ذلكَ سببُ تنفيرِ القلوبِ عنْ قبولِ موعظتهِ[4].

فالعقلُ يحثُّ صاحبهُ أنْ يكونَ أوَّلَ فاعلٍ لمَا يأمرُ بهِ، وأوَّلَ تاركٍ لمَا ينهَى عنهُ، فمنْ أمرَ غيرهُ بالخيرِ ولمْ يفعلهُ، أوْ نهاهُ عنِ الشرِّ فلمْ يتركهُ، دلَّ علَى عدمِ عقلهِ وجهلهِ، خصوصًا إذَا كانَ عالمًا بذلكَ، قدْ قامتْ عليهِ الحجَّةُ[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٠٢٧، ١٩٢/٦.

(2) المجالسة وجواهر العلم، الدينوري، ٣٣٢/٤.

(3) المصدر السابق، ٤٩٣/٤.

(4) لباب التأويل، الخازن، ٤٢/١.

(5) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥١.

وقالَ الحرالِيُّ: ولمَّا كانَ فيهمْ منْ أشارَ علَى منِ استهداهُ بالهدايةِ لاتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ، ولمْ يهدُوا أنفسهمْ لمَا أرشدُوا إليهِ غيرهمْ، أعلنَ تعالَى عليهمْ بذلكَ نظمًا لمَا تقدَّمَ منْ نقضِ عهدهمْ ولبسهمْ وكتمهمْ بمَا ظهرَ منْ نقصِ عقولهمْ، فِي أنَّ يظهرَ طريقَ الهدَى لغيرِهِ ولَا يتَّبعهُ، فأخرجهمْ بذلكَ عنْ حدِّ العقلِ الذِي هوَ أدنَى أحوالِ المخاطبينَ، وزادَ فِي تبكيتهمْ بجملةٍ حاليَّةٍ حاكيةً تلبُّسهمْ بالعلمِ والحكمةِ النَّاهيةِ عمَّا همْ عليهِ[1].

وقولهُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ عنِ انتفاءِ تعقُّلهمْ استفهامًا مستعملًا فِي الإنكارِ والتَّوبيخِ، نزلُوا منزلةً منِ انتفَى تعقُّلهُ فأنكرَ عليهمْ ذلكَ، ووجهُ المشابهةِ بينَ حالهمْ وحالَ منْ لَا يعقلونَ أنَّ منْ يستمرُ بهِ التغفُّلُ عنْ نفسهِ وإهمالُ التفكُّرِ فِي صلاحهَا معَ مصاحبةِ شيئينِ يذكِّرانهِ، قاربَ أنْ يكونَ منفيًّا عنهُ التعقُّلُ[2].

وهكذَا نجدُ التقريعَ والذمَّ لمنْ لَا يعملُ بمَا يعلِّمهُ للنَّاسِ.

قالَ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: 2 – 3].

تتناولُ ذمَّ منْ قالَ مَا لَا يفعلهُ علَى أيِّ وجهٍ كانَ منْ مطلقٍ أوْ مقيَّدٍ بشرطٍ[3].

هذَا الاستفهامُ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أيْ: لمَ تقولونَ منَ الخيرِ مَا لَا تفعلونهُ؟[4].

---

(1) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٩٢/١.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٧٧/١.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٩/١٨.

(4) فتح القدير، الشوكاني، ٢٦١/٥.

أيْ: لمَ تقولونَ الخيرَ وتحثُّونَ عليهِ، وربَّمَا تمدَّحتمْ بهِ وأنتمْ لَا تفعلونهُ، وتنهونَ عنِ الشرِّ، وربَّمَا نزَّهتمْ أنفسكمْ عنهُ، وأنتمْ متلوِّثونَ بهِ ومتَّصفونَ بهِ، فهلْ تليقُ بالمؤمنينَ هذهِ الحالةُ الذَّميمةُ؟ أمْ منْ أكبرِ المقتِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ مَا لَا يفعلُ؟ ولهذَا ينبغِي للآمرِ بالخيرِ أنْ يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليهِ مبادرةً، وللنَّاهِي عنِ الشرِّ أنْ يكونَ أبعدَ النَّاسِ منهُ[1].

قالَ تعالَى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[الأعراف: 175 – 178].

قالَ قتادةُ: هذَا مثلٌ ضربهُ اللهُ لمنْ عرضَ عليهِ الهدَى فلمْ يقبلهُ[2].

أنَّهُ مالَ إلَى الدُّنيَا ورغبَ فيهَا وآثرهَا علَى الآخرةِ واتَّبعَ هواهُ، أيِ: اتَّبعَ مَا يهواهُ، وتركَ العملَ بمَا يقتضيهِ العلمُ الذِي علَّمهُ اللهُ، وهوَ حطامُ الدُّنيَا[3].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٨.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٢٧٢/٢.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ٣٠٢/٢.

وفِي هذهِ الآياتِ التَّرغيبُ فِي العملِ بالعلمِ، وأنَّ ذلكَ رفعةٌ منَ اللهِ لصاحبهِ، وعصمةٌ منَ الشَّيطانِ، والتَّرهيبُ منْ عدمِ العملِ بهِ، وأنَّهُ نزولٌ إلَى أسفلِ سافلينَ، وتسليطٌ للشَّيطانِ عليهِ، وفيهِ أنَّ اتِّباعَ الهَوَى، وإخلادُ العبدِ إلَى الشَّهواتِ، يكونُ سببًا للخذلانِ[1].

هنَا نفيٌ بضربِ المثلِ للمكذِّبينَ بآياتِ اللهِ المنزلةِ علَى رسولهِ الكريمِ بعدَ أنْ أيَّدهَا بالأدلَّةِ العقليَّةِ والكونيَّةِ، وهوَ مثلُ منْ آتاهُ اللهُ آياتهِ فكانَ عالمًا بهَا قادرًا علَى بيانهَا، لكنَّهُ لَا يعملُ بهَا، بلْ يأتِي عملهُ مخالفًا لعلمهِ، لذَا سلبهُ اللهُ مَا آتاهُ[2].

فالعملُ المباركُ المقبولُ هوَ مَا كانَ عنْ علمٍ، كذلَكَ العلمُ الطيِّبُ المباركُ هوَ الذِي ينفعُ صاحبهُ ويعملُ بهِ، فيكونُ حجَّةُ لهُ لَا عليهِ، ويرفعُ اللهُ درجاتهِ فِي الجنَّةِ.

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٨.

(2) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، ٨٩/٢.

ثالثًا: الامتناعُ عنِ المعاصِي:

فالسَّعيدُ الذِي منحهُ اللهُ تعالَى عقلًا سليمًا وقلبًا عامرًا بالتَّقوَى والإيمانِ، فهوَ يكونُ بعيدًا كلَّ البعدِ عنِ المعاصِي؛ لأنَّ قلبهُ مضاءٌ بنورِ الإيمانِ، وعقلهُ النيِّرُ وفطرتهُ السَّليمةُ يصدُّ بهمَا كلَّ خطراتِ الشَّيطانِ، كذلكَ نفسهُ التِي بينَ جنبيهِ تكونُ مطمئنَّةً، تدعوهُ للعملِ الصَّالحِ والطَّاعةِ والسُّلوكِ القويمِ الذِي يرضِي اللهَ تعالَى عنهُ، فلَا يسلكُ سبلَ الشَّيطانِ الملتويَةِ، بلْ يبتعدُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ تعالَى، وإنْ وقعَ منهُ الخطأُ سارعَ بالتَّبةِ ولوْ تكرَّرَ الخطأُ كرَّرَ التَّوبةَ.

قالَ تعالَى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الأنعام: 151].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: لكيْ تنتفعُوا بعقولكمْ[1].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: تستعملونَ عقولكمْ التِي تعقلُ نفوسكمْ وتحبسهَا عنْ مباشرةِ القبائحِ المذكورةِ[2].

وقولهُ تعالَى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) رجاءٌ أنْ يعقلُوا، أيْ: يصيرُوا ذوِي عقولٍ؛ لأنَّ ملابسةَ بعضَ هذهِ المحرَّماتِ ينبِّئُ عنْ خساسةِ عقلٍ، بحيثُ ينزلُ ملابسوهَا منزلةَ منْ لَا يعقلُ، فلذلكَ رجيَ أنْ يعقلُوا[3].

---

(1) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/٣١٥.

(2) إرشاد العقل السليم،أبو السعود، ٣/١٩٩.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨ أ/١٦٢.

ذلكمْ وصَّاكمْ بهِ اللهُ، وأرشدكمْ، لتعقلُوا الخيرَ والمنفعةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ، وتركِ مَا نهَى عنهُ، إذْ هوَ ممَّا تدركهُ العقولُ، وفِي هذَا تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ لَا يُعقلُ لهُ معنَى، ولَا تظهرُ لهُ فائدةٌ عندَ ذوِي العقولِ الرَّاجحةِ(1).

لعلَّكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ أوامرهُ ونواهيهِ، أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركِ مَا نهَى عنهُ(2).

قالَ تعالَى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}[الزخرف: 21 – 27].

أيْ: أنَا أتبرَّأُ ممَّا تعبدونَ إلَّا منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ (إلاَّ) بمعنَى لكنَّ، فيكونُ المعنَى: لكنَّ الذِي فطرنِي فإنَّهُ سيهدينِي، أيْ: سيرشدنِي لدينهِ ويوفِّقنِي لطاعتهِ(3).

(1) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٦٨٢/١.
(2) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.
(3) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦٢٩/٢٧.

يعنِي: بريءٌ منْ معبودكمْ، إلَّا الذِي خلقنِي، فإنِّي لَا أتبرَّأُ منهُ، (فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) يعنِي: يثبِّتنِي علَى دينِ الإسلامِ[1].

قالَ ذلكَ ثقةً باللهِ وتنبيهًا لقومهِ أنَّ الهدايةَ منْ ربِّهِ[2].

لكنَّ الذِي فطرنِي هوَ معبودِي الهادِي المنجِي منَ العذابِ، وفِي هذَا استدعاءٌ لهمْ، وترغيبٌ فِي طاعةِ اللهِ، وتطميعٌ فِي رحمتهِ[3].

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ، يمنعُ نفسهُ منِ ارتكابِ المعاصِي والوقوعِ فِي المحرَّماتِ، وذلكَ لأنَّ العقلَ معناهُ: الكفُّ والحبسُ، فهوَ يحبسُ صاحبهُ ويكفُّهُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ سبحانهُ وتعالَى.

---

(1) تفسير السمرقندي، ٣/٢٥٥.

(2) النكت والعيون، الماوردي، ٥/٢٢٢.

(3) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/١٧٨.

رابعًا: البعدُ عنِ التَّقليدِ المذمومِ:

فقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى الرُّسلَ لهدايةِ النَّاسِ والأخذِ بأيديهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ وهدايةِ قلوبهمْ بنورِ الإيمانِ، بعدَ مَا كانتْ مظلمةً بظلمةِ الكفرِ، واتِّباعهمْ لتقاليدِ الآباءِ الكفريَّةِ والشركيَّةِ التِي هيَ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عنْ شريعةِ الإسلامِ، ولكنَّ بعضهمْ رفضُوا الانقيادَ لمنهجِ اللهِ القويمِ، فكانَ عقابهمْ جهنَّمُ وبئسَ المصيرَ، فخسرُوا الدُّنيَا والآخرةَ، وشبَّههمْ اللهُ تعالَى بالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا؛ لتعطيلهمْ عقولهمْ عنِ الفهمِ والإدراكِ، وصمَّهمْ لآذانهمْ، وطمسِ أبصارهمْ عنْ نورِ الهدايةِ والإيمانِ.

فإنَّ البشريَّةَ قدْ بلغتْ رشدهَا فأصبحتْ تقادُ بالعقلِ وحدهُ، ولمْ يعدْ ينفعُ معهَا مجرَّدُ الخوارقِ والقوارعِ الملجئةِ أوْ شبهَ الملجئةِ، فجاءَ الإسلامُ دينًا منطقيًّا، رفعَ منْ قيمةِ العقلِ، ثمَّ هوَ بعدَ ذلكَ يذمُّ التَّقليدَ وينعِي علَى المقلِّدينَ لآبائهمْ وأحبارهمْ ورهبانهمْ[1].

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}[البقرة: 170 – 171].

---

(1) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، محمد حسين الذهبي، ١/٥٩.

(لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) يعنِي لَا يعلمونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ، لفظهُ عامٌ ومعناهُ خاصٌّ، وذلكَ أنَّهمْ كانُوا يعقلونَ أمرَ الدُّنيَا (وَلاَ يَهْتَدُونَ) أيْ: إلَى الصَّوابِ(1).

قالَ الضحَّاكُ عنِ ابنِ عباسَ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ) يعنِي: كفَّارَ قريشٍ منْ بنِي عبدِ الدَّارِ، قالُوا: (قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) منْ عبادةِ الأصنامِ، فقالَ اللهُ: (لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) منَ التَّوحيدِ ومعرفةِ الرَّحمنِ (وَلاَ يَهْتَدُونَ) للحجَّةِ البالغةِ لَا يعقلونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ. معنَى الآيةِ فِي أحدِ الأقوالِ: ومثلُ الذينَ كفرُوا فِي قلَّةِ عقلهِمْ وفهمهِمْ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعنْ رسولهِ وسوءِ قبولهِمْ عنهمَا كمثلِ المنعوقِ بهِ منَ البهائمِ، التي لَا تفقهُ منَ الأمرِ والنَّهيِ غيرَ الصَّوتِ، فكذلكَ الكافرُ فِي قلَّةِ فهمهِ وسوءِ تفكُّرهِ، فالكافرُ ليسَ لهُ منْ دعائهِ الآلهةَ وعبادتهِ الأوثانِ إلَّا العناءُ والبلاءُ، ولَا ينتفعُ منهَا بشيءٍ فهمْ لَا يعقلونَ(2).

يقولُ تعالَى ذكرهُ لهؤلاءِ الكفَّارِ: فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ (فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ) إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ(3).

---

(1) لباب التأويل، الخازن، ١٠٢/١.

(2) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٤٣/٢.

(3) جامع البيان، الطبري، ٣٠٧/٣.

معناهُ أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ(1).

وفِي هذَا دلالةٌ علَى ذمِّ التَّقليدِ (عمومًا)، وهوَ قبولُ الشَّيءِ بلَا دليلٍ ولَا حجَّةٍ، وحكَى ابنُ عطيَّةَ أنَّ الإجماعَ منعقدٌ علَى إبطالهِ فِي العقائدِ، وفِي الآيةِ دليلٌ علَى أنَّ مَا كانَ عليهِ آباؤهمْ هوَ مخالفٌ لمَا أنزلَ اللهُ تعالَى، فاتِّباعُ أبنائهمْ لآبائهمْ تقليدٌ فِي ضلالٍ، وفِي هذَا دليلٌ علَى أنَّ دينَ اللهِ هوَ اتِّباعُ مَا أنزلَ اللهُ، لأنَّهمْ لمْ يؤمرُوا إلَّا بهِ(2).

وهكذَا نجدُ كيفَ أنَّ اللهَ تعالَى ذمَّ المقلِّدينَ للآباءِ أوِ الرُّؤساءِ الجهَّالِ، والمعرضينَ عنِ اتِّباعِ منهجِ اللهِ تعالَى وتعاليمهِ.

قالَ تعالَى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}[الزخرف: 21 – 23].

وفِي هذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ، لذمِّهِ إيَّاهمْ علَى تقليدِ آبائهمْ وتركهمْ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ(3).

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ أوْ نقليَّةٍ بلِ اعترفُوا بأنَّ لَا سندَ لهمْ سوَى تقليدُ آبائهمُ الجهلةُ مثلهمْ(4).

---

(1) تفسير السمرقندي، ١/١١٢.

(2) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٢/١٠٣.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/٧٥.

(4) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/٤٣.

وهذَا منْ أعظمْ الأدلَّةِ الدَّالةِ علَى بطلانِ التَّقليدِ وقبحهِ، فإنَّ هؤلاءِ المقلِّدةِ فِي الإسلامِ إنَّمَا يعملونَ بقولِ أسلافهِمْ، ويتبعونَ آثارهِمْ، ويقتدونَ بهِمْ، فإذَا رامَ الدَّاعِي إلَى الحقِّ أنْ يخرجهِمْ منْ ضلالةٍ، أوْ يدفعهِمْ عنْ بدعةٍ قدْ تمسَّكُوا بهَا وورثوهَا عنْ أسلافهِمْ بغيرِ دليلٍ نيِّرٍ، ولَا حجَّةٍ واضحةٍ، بلْ بمجرَّدِ قالَ وقيلَ لشبهةٍ داحضةٍ، وحجَّةٍ زائفةٍ، ومقالةٍ باطلةٍ، قالُوا بمَا قالهُ المترفونَ منْ هذهِ المللِ: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى أمَّةٍ وإنَّا علَى آثارهِمْ مقتدونَ[1].

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ، أوْ نقليَّةٍ، بلِ اعترفُوا بتقليدِ آبائهِمْ الجهلةِ، وقالُوا: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى حالةٍ عظيمةٍ تقصدُ، وإنَّا مهتدونَ علَى أعمالهِمْ، وكذلكَ، أيْ: والأمرُ كمَا ذكرَ منْ عجزهِمْ عنِ الحجَّةِ وتمسُّكهِمْ بالتَّقليدِ[2].

وهذَا الاحتجاجُ منْ هؤلاءِ المشركينَ الضَّالينَ، بتقليدهِمْ لآبائهِمْ الضَّالينَ، ليسَ المقصودُ بهِ اتِّباعُ الحقِّ والهدَى، وإنَّمَا هوَ تعصُّبٌ محضٌ، يرادُ بهِ نصرةُ مَا معهمْ منَ الباطلِ[3].

هذَا الكلامُ مسوقٌ مساقَ الذمِّ لهمْ إذْ لمْ يقارنُوا بينَ مَا جاءهمْ بهِ الرَّسولُ ﷺ وبينَ مَا تلقَّوهُ منْ آبائهِمْ، فإنَّ شأنَ العاقلِ أنْ يميِّزَ مَا يُلقَى إليهِ منِ الاختلافِ ويعرضهُ علَى معيارِ الحقِّ[4].

(1) فتح القدير، الشوكاني، ٦٣٢/٤.
(2) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٣٨٢/٢.
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٧/٢٥.

ليستْ لهمْ حجَّةٌ عقليَّةٌ ولَا حجَّةٌ نقليَّةٌ تبرِّرُ لهمْ أفعالهمْ، وإنَّمَا السَّببُ الحقيقِي أنَّهمْ يقلِّدونَ آباءهمْ تقليدَ الأعمَى معَ التَّعصُّبِ الشَّديدِ ولوْ كانُوا علَى باطلٍ[1].

وهذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ فِي العقائدِ والأصولِ، لأنَّ اللهَ ذمَّهمْ علَى تقليدِ آبائهمْ، وتركهمُ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ[2].

قالَ سبحانهُ عنْ أهلِ النَّارِ: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

فقدْ كانتْ لديهمْ عقولٌ وأسماعٌ لزمتهمْ بهَا الحجَّةُ عندَ اللهِ تعالَى[3].

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}[لقمان: 21].

بيَّنَ أنَّ مجادلتهمْ معَ كونهَا منْ غيرِ علمٍ فهيَ فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وبينَ كلامِ اللهِ وكلامِ العلماءِ بَوْنٌ عظيمٌ، فكيفَ مَا بينَ كلامِ اللهِ وكلامِ الجهَّالِ؟![4].

---

(1) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٣/٣٨٩.

(2) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٥/١٣٩.

(3) مقام العقل في الإسلام، د.محمد عمارة، ص ٧٦.

(4) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥/٤٥٥.

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أيْ: وإذَا قيلَ لهؤلاءِ المجادلينَ فِي توحيدِ اللهِ: اتَّبعُوا مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولِهِ منَ الشَّرائعِ المطهَّرةِ، لمْ يكنْ لهمْ حجَّةٌ إلَّا اتِّباعُ الآباءِ الأقدمينَ فيمَا اعتقدُوه منْ دينٍ، وهذَا فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ الهادِي إلَى الحقِّ والخيرِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وهذَا منعٌ صريحٌ منَ التَّقليدِ فِي أصولِ العقيدةِ، لذَا وبَّخهمُ اللهُ علَى سوءِ مقالتهمْ[1].

فهذَا هوَ سندهمُ الوحيدُ، وهذَا هوَ دليلهمُ العجيبُ! التقليدُ الجامدُ المتحجِّرُ الذِي لَا يقومُ علَى علمٍ ولَا يعتمدُ علَى تفكيرٍ. التَّقليدُ الذِي يريدُ الإسلامُ أنْ يحرِّرهمْ منهُ، وأنْ يُطلقَ عقولهمْ للتدبُّرِ وينشرَ فيهَا اليقظةَ والحركةَ والنُّورَ، فيأبُوا همُ الانطلاقَ منْ إسارِ الماضِي المنحرفِ، ويتمسَّكُوا بالأغلالِ والقيودِ.

إنَّ الإسلامَ حريَّةٌ فِي الضَّميرِ، وحركةٌ فِي الشُّعورِ، وتَطَلُّعٌ إلَى النُّورِ، ومنهجٌ جديدٌ للحياةِ، طليقٌ منْ إسارِ التَّقليدِ والجمودِ، ومعَ ذلكَ كانَ يأباهُ ذلكَ الفريقُ منَ النَّاسِ، ويدفعونَ عنْ أرواحهمْ هداهُ، ويجادلونَ فِي اللهِ بغيرِ علمٍ ولَا هدًى ولَا كتابٍ منيرٍ[2].

وإذَا دعُوا إلَى اتِّباعِ وحيِ اللهِ رجعُوا إلَى التَّقليدِ المحضِ بغيرِ حجَّةٍ فسلكُوا طريقَ الآباءِ، فكانَ القائلُ منهمْ يقولُ: همْ يتَّبعونَ دينَ آبائهمْ ولوْ كانَ مصيرهمْ إلَى السَّعيرِ[3].

---

(1) التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/١٦٠.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/٢٧٩٣.
(3) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/٣٥٣.

خامسًا: إدراكُ الحكمةِ منَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ:

لقدْ مَنَّ اللهُ علَى النَّاسِ بنعمةِ العقلِ، ليُهتدَى بهِ خلالَ رحلةِ الحياةِ، فعنْ طريقهِ يُعبدُ اللهَ تعالَى علَى بصيرةٍ، حيثُ تُتدبَّرُ الأحكامَ الشَّرعيَّةِ، بينَ تعلُّمهَا وفهمهَا وفقهِ مَا بهَا منْ أوامرَ ونواهٍ، فبإدراكِ الحكمةِ يزدادُ اليقينُ، ويقوَى الإيمانُ، وتتَّسعُ مداركُ العقولُ.

إنَّ الآياتِ التَّشريعيَّةِ التِي تبيِّنُ فضلَ اللهِ علَى النَّاسِ فِي تشريعِ الأحكامِ لهمْ كثيرةٌ تكفلُ القسمَ المدني منَ القرآنِ بهَا، وجاءتْ وفقَ مبادئِ الإسلامِ العظيمِ فِي التَّيسيرِ ورفعِ الحرجِ وغيرهَا، ممَّا ميَّزَ طبيعةَ التَّشريعِ الإسلاميِّ عنْ غيرهِ، وهنَا فنحنُ أمامَ مجموعةٍ منَ الآياتِ المتحدِّثةِ عنْ حكمةِ تحريمِ الخمرِ والميسرِ، وعنْ مشروعيَّةِ النَّفقةِ والصَّدقةِ، وعنْ أهميَّةِ سنَّةِ الزَّواجِ، وهيَ أمورٌ قليلةٌ إنْ قورنتْ بمجموعِ مَا تحدَّثَ عنهُ القرآنُ فِي مسائلِ التَّشريعِ، لكنْ طلبَ التَّفكيرِ فيهَا ربَّمَا لأمورٍ خفيَّةٍ قدْ لَا تُدركُ بمجرَّدِ العقلِ أوِ السَّمعِ، فلَا بدَّ منْ إعمالِ الفكرِ فيهَا[1].

القرآنُ العظيمُ جاءَ بهداياتٍ كاملةٍ تامَّةٍ، تفِي بحاجاتِ جميعِ البشرِ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لأنَّ الذِي أنزلهُ هوَ العليمُ بكلِّ شيءٍ، خالقُ البشريَّةِ والخبيرُ بمَا يصلحهَا ويفسدهَا، ومَا ينفعهَا ويضرُّهَا، فإذَا شرعَ أمرًا جاءَ فِي أعلَى درجاتِ الحكمةِ والخبرةِ، قالَ تعالَى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك: 14].

---

(1) مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والقانون، د.محمد خازر المجالي، ص ٥٢.

ويزدادُ الوضوحُ عندَ التأمُّلِ فِي أحوالِ الأنظمةِ والقوانينِ البشريَّةِ التِي يظهرُ عجزهَا عنْ معالجةِ المشكلاتِ البشريَّةِ، ومسايرةِ الأوضاعِ والأزمنةِ والأحوالِ، ممَّا يضطرُّ أصحابهَا إلَى الاستمرارِ فِي التَّعديلِ والزِّيادةِ والنقصِ، فيلغونَ غدًا مَا وضعوهُ اليومَ؛ لأنَّ الإنسانَ محلُّ النَّقصِ والخطأِ، والجهلِ لأعماقِ النَّفسِ البشريَّةِ، والجهلِ بمَا يحدثُ غدًا فِي أوضاعِ الإنسانِ وأحوالهِ وفيمَا يصلحُ البشريَّةَ فِي كلِّ عصرٍ ومصرٍ[1].

قالَ تعالَى: {كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة: 242].

أيْ: لكيْ تعقلُوا مَا بيَّنتُ لكمْ منَ الفرائضِ والأحكامِ ومَا فيهِ صلاحكمْ وصلاحِ دينكمْ[2].

ولمَّا بيَّنَ تعالَى هذهِ الأحكامِ العظيمةِ المشتملةِ علَى الحكمةِ والرَّحمةِ امتنَّ بهَا علَى عبادهِ فقالَ: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، أيْ: حدودهُ، وحلالهُ وحرامهُ والأحكامُ النَّافعةُ لكمْ، لعلَّكمْ تعقلونهَا فتعرفونهَا وتعرفونَ المقصودَ منهَا، فإنَّ منْ عرفَ ذلكَ أوجبَ لهُ العملُ بهَا[3].

فكذلكَ أبيِّنُ لكمْ سائرَ الأحكامِ فِي آياتِي التِي أنزلتهَا علَى نبيِّ محمَّدٍ ﷺ فِي هذَا الكتابِ، لتعقلُوا حدودِي، فتفهمَوا اللَّازمَ لكمْ منْ فرائضِي، وتعرفُوا بذلكَ مَا فيهِ صلاحُ دينكمْ ودنياكمْ، وعاجلكمْ وآجلكمْ، فتعملُوا بهِ ليُصلحَ ذاتَ بينكمْ، وتنالُوا بهِ الجزيلَ منْ ثوابِي فِي معادكمْ[4].

---

(1) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، ١/٥٠.

(2) لباب التأويل، الخازن، ١/١٧٦.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٦.

(4) جامع البيان، الطبري، ٥/٢٦٦.

وعدَ بأنَّهُ سيبيِّنُ لعبادهِ منَ الدَّلائلِ والأحكامِ مَا يحتاجونَ إليهِ معاشًا ومعادًا، لعلَّكمْ تفهمونهَا فتستعملونَ العقلَ فيهَا(1).

أيْ: مثلُ هذَا التبيينِ الذِي سبقَ منَ الأحكامِ، يبيِّنُ لكمْ فِي المستقبلِ مَا بقيَ منَ الأحكامِ التِي يكلِّفهَا العبادَ، لعلَّكمْ تعقلونَ مَا يرادُ منكمْ منِ التزامِ الشَّرائعِ والوقوفِ عندهَا، لأنَّ التَّبيينَ للأشياءِ ممَّا يتَّضحُ للعقلِ بأوَّلِ إدراكٍ، بخلافِ الأشياءِ المغيَّباتِ والمجملاتِ، فإنَّ العقلَ يرتبكُ فيهَا، ولَا يكادُ يحصلُ منهَا علَى طائلٍ(2).

قالَ تعالَى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الأنعام: 151].

أيْ: لكيْ تعقلُوا فوائدَ هذهِ التَّكاليفِ فِي الدِّينِ والدُّنيَا(3).

أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركَ مَا نهَى عنهُ(4).

---

(1) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/١٤٨.

(2) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٢/٥٥٥.

(3) مراح لبيد، محمد الجاوي، ١/٣٥٤.

(4) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/٩٨.

أيْ: وصَّاكمْ اللهُ بذلكَ لمَا فيهِ منْ إعدادكمْ، وباعثُ الرَّجاءِ فِي أنفسكمْ لأنْ تعقلُوا مَا فيهِ الخيرُ والمنفعةُ فِي تركِ مَا نهَى عنهُ وفعلِ مَا أمرَ بهِ، فإنَّ ذلكَ ممَّا تدركهُ العقولُ الصَّحيحةُ بأدنَى تأمُّلٍ، وفيهِ دليلٌ علَى الحسنِ الذَّاتِي وإدراكِ العقولِ لهُ بنظرِهَا، وإذَا هيَ عقلتْ ذلكَ كانَ عاقلًا لهَا ومانعًا منَ المخالفةِ، وفيهِ تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ منَ الشِّركِ وتحريمِ السَّوائبِ وغيرِهَا، ممَّا لَا تُعقلُ لهُ فائدةٌ، ولَا تظهرُ للأنظارِ الصَّحيحةِ فيهِ مصلحةٌ(1).

قالَ تعالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[النور: 61].

فأنزلَ سبحانهُ لهمْ فِي كلِّ وقتٍ شرعًا يليقُ بذلكَ الزَّمانِ علَى لسانِ رسولٍ منْ رُسلهِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ، جعلَ ذلكَ الشَّرعَ يطابقُ العقلَ السويَّ، والنُّورَ الضَّويَّ، والمنهلَ الرويَّ، والسببَ القويَّ، منْ تمسَّكَ بهِ هُديَ ولمْ يزغْ، حدَّ فيهِ سبحانهُ حدودًا، وأقامَ فيهِ زواجرَ، لتظهرَ حكمتهُ، ويتَّضحَ علمهُ وقدرتهُ، فصارتْ شرائعُ متَّفقةُ الأصولِ، مختلفةُ الفروعِ، بحسبِ الأزمنةِ، إشارةٌ إلَى أنَّ

---

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/١٦٦.

الفاعلَ فِي تغييرِ الأحكامِ بحسبِ الأزمانِ واحدٌ مختارٌ، وامتحانًا للعبادِ، تمييزًا لأهلِ الصَّلاحِ منهمْ منْ أهلِ الفسادِ[1].

أيْ: مَا فِي تضاعيفهَا منَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وتعملونَ بموجبهَا، وتحوزونَ بذلكَ سعادةَ الدَّارينِ[2].

تعليلٌ لذلكَ التَّبيينِ برجاءِ تعقُّلِ آياتِ اللهِ سبحانهُ وفهمِ معانيهَا[3].

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) الدَّالَّاتِ علَى أحكامهِ الشَّرعيَّةِ وحكمهَا، (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) عنهُ فتفهمونهَا، وتعقلونهَا بقلوبكمْ، ولتكونُوا منْ أهلِ العقولِ والألبابِ الرَّزينةِ، فإنَّ معرفةَ أحكامهُ الشَّرعيَّةِ علَى وجههَا، يزيدُ فِي العقلِ، وينمُو بهِ اللبُّ، لكونِ معانيهَا أجلِّ المعانِي، وآدابهَا أجلُ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، فكمَا استعملَ عقلهُ للعقلِ عنْ ربِّهِ، وللتفكُّرِ فِي آياتهِ التِي دعاهُ إليهَا، زادهُ منْ ذلكَ[4].

وكذلكَ يبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ آياتهِ وحكمهِ لعلَّهمْ يدركونَ المنهجَ الإلهيَّ، ولعلَّهمْ يعقلونَ مَا فِي هذهِ الآياتِ والحججِ[5].

ومنْ هنَا نجدُ أنَّ منَ الحكمةِ التدبُّرُ فِي الآياتِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ونوقنُ بأنَّ اللهَ تعالَى حدَّ الحدودَ ووضعَ القيودَ، والفرائضَ والمندوباتِ لحكمةٍ، بعضهَا أعلمَ بهَا عبادهُ، وبعضهُ أخفَى سرَّهَا ولَا يعلمهَا إلَّا هوَ سبحانهُ لغايةٍ يريدهَا سبحانهُ وتعالَى.

---

(1) نظم الدرر، البقاعي، ٣٢١/١٣.

(2) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٩٧/٦.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ٦٣/٤.

(4) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

(5) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٢٧٣٤/١.

سادسًا: عدمُ اتباعِ الشَّيطانِ:

فالعاقلُ منِ ائتمرَ بأوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ نهَى عبادهُ عنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ؛ لأنَّهُ عدوٌّ لهمْ، ولَا يريدُ لهمْ إلَّا الغوايةَ والضَّلالةَ، لذَا علَى المسلمِ العاقلِ أنْ يكونَ دائمَ اليقظةِ، وعقلهُ وقلبهُ منتبهانِ؛ لئلَّا يقعَ فِي شركهِ وهوَ فِي غفلةٍ فيخسرُ الدُّنيَا والآخرةِ.

قالَ تعالَى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس: 60 – 62].

أيْ: لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فِي معصيةِ اللهِ[1].

قدْ رأيتمْ آثارَ الهالكينَ قبلكمْ بطاعةِ الشَّيطانِ، أفلمْ تعقلُوا ذلكَ؟![2].

وقولهُ عزَّ وجلَّ: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ) أيْ: ألمْ آمركمْ وأوصيكمْ يَا بنِي آدمَ (أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) يعنِي: لَا تطيعوهُ فيمَا يوسوسُ ويزيِّنُ لكمْ منْ معصيَةِ اللهِ (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أيْ: ظاهرُ العداوةِ، (وَأَنِ اعْبُدُونِي) أيْ: أطيعونِي ووحِّدونِي (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أيْ: لَا صراطَ أقومَ منهُ، وقولهُ تعالَى: (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا) أيْ: خلقًا كثيرًا (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) يعنِي: مَا أتاكمْ منْ هلاكِ الأممِ الخاليةِ بطاعةِ إبليسَ[3].

---

(1) معالم التنزيل، البغوي، ٧/٢٣.

(2) زاد المسير، الجوزي، ٣/٥٢٩.

(3) لباب التأويل، الخازن، ٤/١١.

هذَا تقريعٌ منَ اللهِ للكفرةِ منْ بنِي آدمَ، الذينَ أطاعُوا الشَّيطانَ وهوَ عدوٌّ لهمْ مبينٌ، وعصُوا الرَّحمنَ وهوَ الذِي خلقهمْ ورزقهمْ؛ واتَّبعتمْ الشَّيطانَ فيمَا أمركمْ بهِ، أفمَا كانَ لكمْ عقلٌ فِي مخالفةِ ربِّكمْ فيمَا أمركمْ بهِ منْ عبادتهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وعدولكمْ إلَى اتِّباعِ الشَّيطانِ؟! [1].

ألمْ أوصكمْ يَا بنِي آدمَ أنْ لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فيمَا يوسوسُ بهِ إليكمْ منَ المعاصِي، لأنَّهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ واضحُ العداوةِ، ولقدْ أضلَّ الشَّيطانُ منكمْ يَا بنِي آدمَ أممًا كثيرةً، أكنتمْ تشاهدونَ آثارَ عقوباتهمْ (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أنَّهَا لضلالهمْ، أوْ أفلمْ تكونُوا تعقلونَ شيئًا أصلًا، فلذلكَ كفرتمْ ككفرهمْ واستحققتمْ العذابَ مثلهمْ[2].

رجوعٌ إلَى بيانِ معاداةِ الشَّيطانِ معَ ظهورِ عداوتهِ ووضوحِ إضلالهِ لمنْ لهُ أدنَى عقلٍ ورأيٍ[3].

فالشَّيطانُ يأمرُ البعضَ بتركِ عبادةِ اللهِ وبعبادةِ غيرهِ فهوَ توليةٌ، فإنْ لمْ يقدرْ يأمرهُ بعبادةِ اللهِ لأمرِ غيرِ اللهِ منْ رئاسةٍ وجاهٍ وغيرهمَا فهوَ صدٌّ، وهوَ يفضِي إلَى التَّوليةِ؛ لأنَّ مقصودهُ لوْ حصلَ لتركَ اللهَ وأقبلَ علَى ذلكَ الغيرِ فتحصلَ التَّوليةُ[4]. (أي تولَّى الشَّيطانَ، أيِ اتَّخذَ الشَّيطانَ زليًّا)

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوةَ الشَّيطانِ لكمْ[5].

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٥٨٤/٦.

(2) انظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٣٨٠/٨.

(3) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٧٢/٤.

(4) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠١/٢٦.

(5) فتح القدير، الشوكاني، ٤٣٣/٤.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيُّهَا المشركونَ، إذْ أطعتمْ الشَّيطانَ فِي عبادةِ غيرِ اللهِ، أنَّهُ لَا ينبغِي لكمْ أنْ تطيعُوا عدوَّكمْ وعَدُوَّ اللهِ، وتعبدُوا غيرَ اللهِ[1].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) استفهامُ تقريعٍ علَى تركهمُ الانتفاعَ بالعقلِ[2].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوتهُ وتعلمُوا أنَّ الواجبَ طاعةُ اللهِ[3].

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[البقرة: 168، 169].

فهذَا نهيٌ عنِ اتِّباعِ وحيِ الباطلِ والشرِّ، لأنَّهُ منْ إغواءِ الشَّيطانِ، ثمَّ بيَّنَ كيفيَّةَ عداوتهِ وفنونَ شرِّهِ وإفسادهُ فقالَ: (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء) أيْ: إنَّمَا يوسوسُ الشَّيطانُ ويتسلَّطُ عليكمْ، كأنَّهُ آمرٌ مطاعٌ بأنْ تفعلُوا مَا يسوؤكمْ فِي دنياكمْ وآخرتكمْ، وأنْ تجترحُوا الفواحشَ مَا ظهرَ منهَا ومَا بطنَ، والتَّصرفَ فِي الأكوانِ بدونِ اتِّخاذِ الأسبابِ قدْ ضلُّوا ضلالًا بعيدًا واتَّبعُوا أمرَ الشَّيطانِ، ومثلهمْ منِ اتَّخذَ رأيَ الرُّؤساءِ حجَّةً فِي الدِّينِ منْ غيرِ أنْ يكونَ بيانًا أو تبليغًا لمَا جاءَ عنِ اللهِ تعالَى، كالذينَ يمنعونَ حكمَ تعدُّدِ الزَّوجاتِ فإذَا ما خطبتهُ بالنَّقلِ الذِي هوَ موافقٌ للعقلِ كانتْ حجَّتهُ وجوبُ اتِّباعِ القانونِ، فهؤلاءِ قدْ أعرضُوا عنْ سننِ اللهِ تعالَى، وأهملُوا نعمةَ العقلِ، واتَّخذُوا منْ دونِ اللهِ الأندادًا بلْ فضَّلوهمْ علَى اللهِ سبحانهُ وتعالَى علوًّا كبيرًا، قالَ تعالَى:

---

(1) جامع البيان، الطبري، ٥٤٣/٢٠.

(2) مدارك التنزيل، النسفي، ١٠٩/٣.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٧/١٥.

{مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ}[الأعراف: 186].

(وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) أيْ: ويأمركمْ أنْ تقولُوا علَى اللهِ فِي دينهِ مَا لَا تعلمونَ علمَ اليقينِ أنَّهُ شرعهُ لكمْ منْ عقائدَ وشعائرَ دينيَّةٍ، أوْ تحليلِ مَا الأصلُ فيهِ التَّحريمُ، أوْ تحريمِ مَا الأصلُ فيهِ الإباحةُ، ففِي كلِّ ذلكَ اعتداءٌ علَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ بالتَّشريعِ، وهذَا أقبحُ مَا يأمرُ بهِ الشَّيطانُ، فإنَّهُ الأصلُ فِي إفسادِ العقائدِ وتحريفِ الشَّرائعِ[1].

أيْ: لَا تطيعوهُ، وهذَا التَّوبيخُ يدخلُ فيهِ التَّوبيخُ عنْ جميعِ أنواعِ الكفرِ والمعاصِي؛ لأنَّهَا كلَّهَا طاعةٌ للشَّيطانِ وعبادةٌ لهُ، فحذَّرتكمْ منهُ غايةَ التَّحذيرِ، وأنذرتكمْ عنْ طاعتهِ، وأخبرتكمْ بمَا يدعوكمْ إليهِ.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيْ: فلَا كانَ لكمْ عقلٌ يأمركمْ بموالاةِ ربِّكمْ ووليِّكمُ الحقُّ، ويزجركمْ عنِ اتِّخاذِ أعدَى الأعداءِ لكمْ وليًّا، فلوْ كانَ لكمْ عقلٌ صحيحٌ لمَا فعلتمْ ذلكَ، فإذَا أطعتمْ الشَّيطانَ وعاديتمُ الرَّحمنَ وكذَّبتمْ بلقائهِ ووردْتُمُ القيامةَ دارَ الجزاءِ وحقَّ عليكمُ القولُ بالعذابِ[2].

وفرَّعَ عليهِ توبيخهمْ بقلَّةِ العقولِ بقولهِ تعالَى: (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)، فالاستفهامُ إنكاريٌّ عنْ عدمِ كونهمْ يعقلونَ، أيْ: يدركونَ، إذْ لو كانُوا يعقلونَ لتفطَّنُوا إلَى إيقاعِ الشَّيطانِ بهمْ فِي مهاوِي الهلاكِ، وزيادةِ فعلِ الكونِ للإيماءِ إلَى أنَّ العقلَ لمْ يتكوَّنْ فيهمْ ولَا همْ كائنونَ بهِ[3].

---

(1) انظر: تفسير المراغي، ٤٤/٢.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور،٤٩/٢٣.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أيْ: ألمْ أوصِي وآمرْ علَى لسانِ رسلِي، والعهدُ: الوصيَّةُ، وهذَا منْ جملةِ مَا يُقالُ لهمْ تقريعًا وإلزامًا للحجَّةِ، ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ أيْ: أن لَّا تطيعوهُ، والمرادُ: عبادةُ غيرِ اللهِ منَ الآلهةِ الباطلةِ، ممَّا زيَّنَ بهِ الشَّيطانُ وأمرَ بهِ، فهوَ لكمْ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيِّنُ العداوةِ، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحِّدونِي وأطيعونِي، أيْ: ألمْ أعهدْ إليكمْ بتركِ عبادةِ الشَّيطانِ، وبعبادتِي، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أيْ: طريقٌ معتدلٌ قويمٌ، وهوَ دينُ الإسلامِ، أفلمْ تكونُوا تعقلونَ عداوةَ الشَّيطانِ وإضلالهُ لكمْ؟![1].

أي: لقدْ عهدتُ إليكمْ يَا بنِى آدمَ عهدًا مؤكَّدًا علَى ألسنةِ رسلِي، أنْ لَا تعبدُوا الشَّيطانَ وأنْ لَا تستمعُوا لوسوستهِ، وأنْ لَا تتَّبعُوا خطواتهِ، لأنَّهُ لكمْ عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ، بحيثُ لَا تخفَى عداوتهُ علَى أحدٍ منَ العقلاءِ[2].

وهكذَا نجدُ أنَّ النَّجاةَ فِي مخالفةِ الشَّيطانِ، ولَا يكونُ ذلكَ إلَّا باستعمالِ العقلِ السَّليمِ الذِي يعرفُ اللهَ ويخشاهُ ويهتدِي بهدِي نبيِّهِ ﷺ.

---

(1) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/٣٥.

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٢/٤٥.

سابعًا: الأدبُ والتَّوقيرُ للرَّسولِ الكريمِ ﷺ والعلماءِ:

لقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى رسلهُ لتنيرَ عقولَ النَّاسِ وقلوبهمْ بنورِ الهدايةِ والإيمانِ، لذَا وجبَ اتِّباعهمْ بالحسنَى واحترامهمْ وتوقيرهمْ كمَا أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى، هذَا لأنَّهُ لَا طريقَ يُصلُ للقرآنِ إلَّا عنْ طريقِ النَّبيِّ ﷺ، وبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعرفُ منهجُ الهدايةِ والإيمانِ والشَّريعةِ الصَّحيحةِ السَّليمةِ، فوجبَ بذلكَ توقيرهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم والأدبُ معهُ فِي مجلسهِ وفِي غيابهِ وبعدَ موتهِ ﷺ.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}[الحجرات: 2].

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) أيْ: إذَا نطقَ ونطقتمْ، ولَا تجهرُوا لهُ بالقولِ إذَا كلَّمتموهُ؛ لأنَّ رتبةَ النبوَّةِ والرِّسالةِ يجبُ أنْ توقَّرَ وتجلَّ، ولَا يكونُ الكلامُ معَ الرَّسولِ ﷺ كالكلامِ معَ غيرهِ، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وبحضرةِ العالمِ، وفِي المساجدِ[1].

أمرهمْ (اللهُ تعالَى) أن يبجِّلوهُ ويفخموهُ ويعظِّموهُ، ولَا يرفعُوا أصواتهمْ عندهُ، ولَا ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا فيقولُ: يَا محمَّدُ، بلْ يقولونَ: يَا رسولَ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ[2].

---

(1) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٩/٥٠٧.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٤/١٧٦.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) يحتملُ أنَّ المرادَ حقيقةَ رفعِ الصَّوتِ؛ لأنَّ ذلكَ يدلُّ علَى قلَّةِ الاحتشامِ وتركِ الاحترامِ؛ لأنَّ خفضَ الصَّوتِ وعدمِ رفعهِ منْ لوازمِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[1].

هذهِ آدابُ أدَّبَ اللهُ بهَا عبادهُ المؤمنينَ فيمَا يعاملونَ بهِ الرَّسولَ ﷺ منَ التَّوقيرِ والاحترامِ والتَّبجيلِ والإعظامِ[2].

يَا أيُّهَا الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ وعملُوا بشرعهِ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ النبيِّ ﷺ عندَ مخاطبتكمْ لهُ، ولَا تجهرُوا بمناداتهِ كمَا يجهرُ بعضكمْ لبعضٍ، وميِّزوهُ فِي خطابهِ كمَا تميَّزَ عنْ غيرهِ فِي اصطفائهِ لحملِ رسالةِ ربِّهِ، ووجوبُ الإيمانِ بهِ، ومحبَّتهِ وطاعتهِ والاقتداءِ بهِ؛ خشيةَ أنْ تَبطلَ أعمالكمْ وأنتمْ لَا تشعرونَ ولَا تحسُّونَ بذلكَ[3].

وفِي هذَا مَا فيهِ منَ الحثِّ علَى توقيرِ العلماءِ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ، وتعظيمِ الأتقياءِ والصُّلحاءِ؛ أسوةً بتوقيرِ سيِّدِ الأنبياءِ[4]، فعنْ أبِي الدَّرداءِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: " ... وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ"[5].

---

(1) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٥٢٣/١٧.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٦٤/٧.

(3) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ٥١٥/١.

(4) أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ٦٣٣/١.

(5) صحيح أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (21715) وصحَّحه الألباني.

فأمرهمُ اللهُ بتوقيرِهِ، وأنْ يدعوهُ بالنبوَّةِ والرِّسالةِ والكلامِ الليِّنِ، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ وبحضرةِ العالمِ وفِي المساجدِ، وحرمةُ النبيِّ ﷺ وسلَّمَ ميتًا كحرمتهِ حيًّا، وكلامهُ المأثورُ بعدَ موتهِ فِي الرِّفعةِ مثلَ كلامهِ المسموعِ منْ لفظهِ[1].

ومنهُ قولُ الإمامِ مالكٍ لأبِي جعفرٍ: يَا أميرَ المؤمنينَ، لَا ترفعْ صوتكَ فِي هذَا المسجدِ؛ فإنَّ اللَهَ عزَّ وجلَّ أدَّبَ قومًا فقالَ: (لَا تَرفعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبيِّ) الآية، ومدحَ قومًا فقالَ: (إنَّ الَّذِينَ يَغضُّونَ أَصْواتَهِمْ) الآية، وذمَّ قومًا فقالَ: (إنَّ الَّذينَ يَنَادُونكَ) الآية، وإنَّ حرمتهُ ميتًا، كحرمتهِ حيًّا (أيِ النَّبيُّ ﷺ)، فاستكانَ لهَا أبُو جعفرٍ.

قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[الحجرات: 4].

فوصفهمُ الله تعالى بالجهلِ وقلَّةِ العقلِ[2]:

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) إذِ العقلُ يقتضِي حسنَ الأدبِ ومراعاةِ الحشمةِ، سيَّمَا لمنْ كانَ بهذَا المنصبِ لكانَ الصَّبرُ خيرًا لهمْ منَ الاستعجالِ لمَا فيهِ منْ حفظِ الأدبِ وتعظيمِ الرَّسولِ الموجبينِ للثَّناءِ والثَّوابِ[3].

والكتابُ العزيزُ مملوءٌ بدعوةِ العقلاءِ إلَى الأدبِ معَ النبيِّ ﷺ فإنَّهُ الرَّحمةُ، وهوَ المثلُ، والهادِي البشيرُ، وكيفَ لَا وهوَ القدوةُ الكاملةُ والأسوةُ الحسنةُ لكلِّ منْ كانَ يرجُو اللهَ واليومِ الآخرِ!

---

(1) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٢٦٨/٥.

(2) لباب التأويل، الخازن، ١٧٧/٤.

(3) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٣٤/٥.

قالَ تعالَى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب: 21].

شرحَ اللهُ صدرهُ، ووضعَ وزرهُ، ورفعَ ذكرهُ، وأوجبَ طاعتهُ، وحرَّمَ خيانتهُ، ومَا تخلَّفَ ركبُ الأمَّةِ اليومَ إلَّا يومَ أنْ تخلَّفتْ عنِ الأدبِ معهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ومَا تجرَّعَ أفرادُ الأمَّةِ مراراتَ البعدِ عنْ جمالِ الحياةِ وطيبِ معانيهَا إلَّا يومَ أنْ بعدتْ نفوسهمْ عنْ سيرتهِ الرَّائعةِ وعنْ هديهِ، فصارُوا يركضونَ وراءَ كلِّ منْ أوتَى ظاهرًا منَ الحياةِ الدُّنيَا، يخلعونَ عليهِ لباسَ العظمةِ والبهاءِ باسمهِ وقولهِ وشخصهِ زعمًا وزورًا! فكمْ منْ صفيقِ وجهٍ صفَّقُوا لهُ، وكتبُوا عنهُ الأسفارَ، وتناقلُوا أقوالهُ! وكمْ منْ سفيهٍ نصَّبوهُ إمامًا يُقتدَى بهِ، فأضحَى الذِي أملوهُ سرابًا بقيعةٍ وأضغاثُ أحلامٍ! فالبعدُ عنْ سيرةِ نبيِّنَا ﷺ والاهتداءِ بغيرهِ هوَ مستنقعُ الجهلِ وهوَّةُ الضَّلالِ وحياةِ الشَّقاءِ، وطاعتهُ هدايةٌ وسعادةٌ وفوزٌ[1].

يَا أيُّها الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ رسولِ اللهِ تتجهَّموهُ بالكلامِ، وتغلظونَ لهُ فِي الخطابِ، ولَا تنادوهُ كمَا ينادِي بعضكمْ بعضًا: يَا محمَّدُ، يَا محمَّدُ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا رسولَ اللهِ، نهاهمُ اللهُ أنْ ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا وأمرهمْ أنْ يشرِّفوهُ ويعظِّموهُ، ويدعوهُ إذَا دعوهُ باسمِ النبوَّةِ[2].

فذمَّهمُ اللهُ بِعَدَمِ العقلِ؛ حيثُ لمْ يعقلُوا عنِ اللهِ الأدبَ معَ رسولهِ واحترامهِ، كمَا أنَّ منَ العقلِ وعلاماتهِ استعمالُ الأدبِ[3].

(1) انظر: موسوعة الأخلاق، خالد الخراز، ١/١٣٧.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/٢٧٧.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٩.

{الآثارُ المترتِّبةُ علَى إهمالِ العقلِ}

وهبَ اللّٰهُ تعالَى عبادهُ العقلَ، كيْ يعبدوهُ حقَّ عبادتهِ ويميِّزُوا بهِ الحقَّ منَ الباطلِ، وبيَّنَ سبحانهُ مَا ينفعُ عبادهُ ومَا يضرُّهمْ، ولمْ يتركهمْ هملًا كالدَّوابِ، ولمْ يعطِ أحدًا منهمْ عذرًا حينَ يعطِّلُ عقلهُ، بلْ منعَ منْ تناولَ أيَّ نوعٍ منَ الأطعمةِ أوِ الأشربةِ التِي تجعلُ العقلَ فِي غيبوبةٍ عنِ العالمِ الذِي حولهِ، أو تؤدِّي إلَى ضررٍ فيهِ، فيمتنعُ بذلكَ عنِ العبادةِ، لكنَّ بعضَ النَّاسِ لمْ يستعملُوا عقولهمْ فِي التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي الآياتِ الكونيَّةِ كمَا أمرَ اللّٰهُ تعالَى، بلْ كانُوا كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا بتقليدهمْ لآبائهمْ أوْ لكُبَرَائِهِمْ فِي الكفرِ.

قالَ تعالَى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"[الأنفال: 22].

إنَّ شرَّ مَا دبَّ علَى الأرضِ منْ خلقِ اللهِ عندَ اللهِ، الذينَ يصمُّونَ عنِ الحقِّ لئلَّا يستمعوهُ، فيعتبرُوا بهِ ويتعظُّوا بهِ، وينكصونَ عنهُ إنْ نطقُوا بهِ، الذينَ لَا يعقلونَ عنِ اللهِ أمرهُ ونهيهُ، فيستعملُوا بهمَا أبدانهمْ[1].

وهذَا مطابقٌ لقولهِ تعالَى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171].

إلَّا أنَّهُ زادَ فِي هذَا وصفَ العمَى، وكلُّ هذهِ الأوصافِ كنايةٌ عنِ انتفاءِ قبولهمْ للإيمانِ وإعراضهمْ عمَّا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، وظاهرُ هذهِ الأخبارِ العمومُ[2].

إنَّ شرَّ النَّاسِ عندَ اللهِ الصمُّ عنِ الهدَى البكمُ، يعنِي: الخرسُ الذينَ لَا يتكلَّمونَ بخيرٍ، الذينَ لَا يعقلونَ الإيمانَ[3].

(1) جامع البيان، الطبري،١٣/٤٥٩.

(2) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥/٣٠٠.

(3) تفسير السمرقندي، ٢/١٤.

سمَّاهمْ دوابًّا لقلَّةِ انتفاعهمْ بعقولهمْ[1].

وقولهُ تعالَى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}[الفرقان: 44].

أيْ: مَا همْ إلَّا كالأنعامِ، جعلهمْ كالأنعامِ؛ لأنَّهمْ لمْ يدركُوا طريقَ الحقِّ، ولمْ ينتفعُوا بمَا ميَّزهمُ اللهُ بهِ عنِ البهائمِ منْ عقولهمْ وأسماعهمْ وأبصارهمْ[2].

أيْ: لَا ينتفعونَ بمَا يعقلونَ[3].

لمْ يخلقْ للأنعامِ قلوبًا تعقلُ بهَا ولَا ألسنةً تنطقُ بهَا، وأعطَى ذلكَ لهؤلاءِ ثمَّ لمْ ينتفعُوا بمَا جعلَ لهمْ منَ العقولِ والقلوبِ والألسنةِ والأسماعِ والأبصارِ فهمْ أضلُّ منَ البهائمِ، فإنَّ منْ لَا يهتدِي إلَى الرُّشدِ وإلَى الطَّريقِ معَ الدَّليلِ لهُ، أضلُّ وأسوأُ حالًا ممَّنْ لَا يهتدِي حيثُ لَا دليلَ معهُ[4].

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ) سماعَ قبولٍ أوْ يفكرونَ فيمَا تقولُ فيعقلونهُ، أيْ همْ بمنزلةِ منْ لَا يعقلُ ولَا يسمعُ، وقيلَ: المعنَى أنَّهمْ لمَّا لمْ ينتفعُوا بمَا يسمعونَ فكأنَّهمْ لمْ يسمعُوا[5].

ليسَ المرادُ أنَّهمْ لَا يعقلونَ بلْ إنَّهمْ لَا ينتفعونَ بذلكَ العقلِ[6].

كذلكَ منْ عطَّلَ عقلهُ عنِ العملِ، سيكونُ تابعًا لغيرهِ ومقلِّدًا لهُ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الاتِّباعِ إلَّا للهِ تعالَى ولرسولهِ ﷺ، فكيفَ بمنْ كانَ متبِّعًا لجاهلٍ!

---

(1) معالم التنزيل، البغوي، ٣٤٣/٣.

(2) تفسير القرآن، السمعاني، ٢٢/٤.

(3) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢٩/٨.

(4) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢٠.

(5) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٦/١٣.

(6) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤٦٣/٢٤.

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: 170].

أخبرَ تعالَى عنْ حالِ المشركينَ إذَا أمرُوا باتِّباعِ مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولهِ ﷺ، رَغِبُوا عنْ ذلكَ واكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ، فلوْ هدُوا لرشدهمْ، وحسنِ قصدهمْ، لكانَ الحقُّ هوَ القصدُ، ومنْ جعلَ الحقَّ قصدهُ، ووازنَ بينهُ وبينَ غيرهِ، تبيَّنَ لهُ الحقُّ قطعًا، واتَّبعهُ إنْ كانَ منصفًا[1].

الآيةُ تضمَّنتْ النَّهيَ عنِ التَّقليدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى أنكرَ عليهمْ متابعةَ آبائهمْ، وأمرَ بمتابعةِ العقلِ والهدَى[2].

أيتَّبعونَ مَا ألفُوا عليهِ آباءهمْ فِي تقاليدهمْ وعاداتهمْ، ولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعقلونَ شيئًا منَ الحقِّ فِي أمورِ العقائدِ والعباداتِ، بلْ ولوْ تجرَّدُوا منْ أيِّ دليلٍ منطقيٍّ، وحادُوا عنِ الصَّوابِ، وهذَا يدلُّ علَى ذمِّ التَّقليدِ بدونِ دليلٍ[3].

ومثلُ الذينَ كفرُوا فيمَا همْ فيهِ منَ الغيِّ والضَّلالِ، والجهلِ وتقليدِ الآباءِ والرُّؤساءِ، كمثلِ الدَّوابِ السَّارحةِ التِي لَا تفقهُ شيئًا ممَّا يقالُ لهَا، فإذَا نعقَ فيهَا راعيهَا فإنَّهَا تسمعُ صوتهُ، ولكنَّهُا لَا تفقهُ مَا يقولُ ولَا تفهمهُ، فهمْ صمٌّ عنْ سماعِ الحقِّ، وبكمٌ لَا يتفوَّهونَ بهِ، وعميٌ عنْ رؤيةِ طريقهِ ومسلكهِ، لَا يعقلونَ شيئًا ولَا يفهمونَ[4].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.

(2) التفسير البسيط، الواحدي ٤٩٠/٣.

(3) التفسير المنير، الزحيلي، ٧٣/٢.

(4) المصدر السابق،٧٦/٢.

وهكذَا بناءً علَى تفسيرِ العلماءِ للآيةِ نرَى حالَ منْ يقلِّدُ الآخرينَ دونَ تعقُّلٍ وتمييزٍ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويعطِّلُ عقلهُ وحواسهُ عنِ الفهمِ والإدراكِ، فهوَ كالدَّوابِ بلْ أضلُّ.

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[المائدة: 104].

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانَ آباؤهمْ جهَّالًا، فنهاهمُ اللهُ عنِ التَّقليدِ، وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحقِّ وبالحجَّةِ[1].

(قالَ الكفَّرُ): يكفينَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا منَ الدِّينِ والمنهاجِ؛ أولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعلمونَ شيئًا منَ الدِّينِ ولَا يهتدونَ لهُ، أيتَّبعونهمْ فِي خطئهمْ[2].

يعنِي قدِ اكتفينَا بمَا أخذناَ عنهمْ منَ الدِّينِ ونحنُ لهمْ تبعٌ؛ ولَا يصحُّ الاقتداءُ إلَّا بالعالمِ المهتدِي الذِي يبنِي قولهُ علَى الحجَّةِ والبرهانِ والدَّليلِ، وأنَّ آباءهمْ مَا كانُوا كذلكَ فيصحُّ اقتداؤهمْ بهمْ[3].

تتَّبعونَ آباءكمْ وتقتدونَ بهمْ، وإنْ كنتمْ تعلمونَ أنَّ آباءكمْ لَا يعلمونَ شيئًا فِي أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ، وإنْ جئتكمْ بأهدَى ممَّا كانَ عليهِ آباؤكمْ؛ يسفههمْ فِي أحلامهمْ فِي تقليدهمْ آباءهمْ، وإنْ ظهرَ عندهمْ أنَّهمْ علَى ضلالٍ وباطلٍ[4].

ولكنَّهمْ يقلِّدونَ كبارهمْ، وفيهِ أنَّ منهمْ منْ يعرفُ بطلانَ ذلكَ ولكنْ يمنعهمْ حبُّ الرِّياسةِ وتقليدِ الآباءِ أنْ يعترفُوا بهَا[5].

---

(1) تفسير السمرقندي، ٤٢٣/١.

(2) زاد المسير، الجوزي، ٥٩٤/١.

(3) لباب التأويل، الخازن، ٨٤/٢.

(4) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦٣٥/٣.

(5) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٤٦/٢.

وينتجُ عنْ إهمالِ العقلِ وعدمِ إعمالهِ آثارٌ سلبيَّة، منهَا:

1) عبادةُ غيرِ اللهِ تعالَى:

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ لَا يصرفُ عبادتهُ إلَّا للهِ الواحدِ سبحانهُ[1].

قالَ تعالَى: {قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[الأنبياء: 62 – 67].

قصَّ اللهُ سبحانهُ علَى عبادهِ كيفَ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانُوا يعبدونَ الأصنامَ ثمَّ قامَ بدعوتهِمْ لعبادةِ اللهِ وحدهُ ولمَّا لمْ يستجيبُوا لهُ قامَ بتكسيرِ تلكَ الأصنامِ وبعدَ ذلكَ قامتْ بينهمْ مشادَّةٌ فاتَّهموهُ بتكسيرهَا، قالَ إبراهيمُ موبِّخًا لهمْ ومعلنًا بشركهمْ علَى رؤوسِ الأشهادِ، ومبيِّنًا عدمِ استحقاقِ آلهتهمْ للعبادةِ، فلَا نفعَ ولَا دفعَ، مَا أضلَّكمْ وأخسرَ صفقتكمْ، ومَا أخسركمْ، أنتمْ ومَا عبدتمْ منْ دونِ اللهِ، إنْ كنتمْ تعقلونَ عرفتمْ هذهِ الحالَ، فلمَّا عدمتمُ العقلَ، وارتكبتمُ الجهلَ والضَّلالَ علَى بصيرةٍ، صارتِ البهائمُ، أحسنَ حالًا منكمْ[2].

---

(1) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة، ص ١٣١.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٦.

قبحًا لكمْ وللآلهةِ التِي تعبدونَ منْ دونِ اللهِ، أفلَا تعقلونَ قبحَ مَا تفعلونَ منْ عبادتكمْ مَا لَا يضرُّ ولَا ينفعُ، فتتركُوا عبادتهُ، وتعبدُوا اللهَ الذِي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ، والذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ[1].

2) افتراءُ الكذبِ علَى اللهِ تعالَى:

نجدُ أنَّ المشركينَ يشرِّعونَ فِي الدِّينِ منَ البدعِ والضَّلالاتِ مَا لمْ يشرعهُ اللهُ تعالَى، بينمَا منْ أعملَ عقلهُ فلَا يتَّبعُ إلَّا مَا جاءَ فِي القرآنِ الكريمِ والسنَّةُ النبويَّةِ.

قالَ تعالَى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[المائدة: 103].

(وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أرادَ بـ (الأكثرِ) الأتْباعَ يعنِي: أنَّ الأتباعَ لَا تعقلُ أنَّ هذَا كذبٌ وافتراءٌ منَ الرُّؤساءِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

وصفهمُ اللهُ سبحانهُ بأنَّهمْ مَا قالُوا ذلكَ إلَّا افتراءً علَى اللهِ وكذبًا، لَا لشرعٍ شرعهُ اللهُ لهمْ ولَا لعقلٍ دلَّهمْ عليهِ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ مَا أركَّ عقولَ هؤلاءِ وأضعفهَا! يفعلونَ هذهِ الأفاعيلَ التِي هيَ محضُ الرّقاعةِ ونفسِ الحمقِ، وهذَا شأنُ علمائهمْ ورؤسائهمْ وكبرائهمْ[3].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٨/٤٦٤.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٢/٨٤.

(3) فتح البيان، صديق خان، ٤/٦٦.

وإذَا قيلَ لهمْ تعالُوا إلَى مَا أنزلَ اللهُ وإلَى الرَّسولِ قالُوا حسبنَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا وهذهِ أفعالُ آبائهمْ وسننهمُ التِي سنُّوهَا لهمْ، وصدقَ اللهُ سبحانهُ حيثُ يقولُ: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[المائدة: 104] أيْ: ولوْ كانُوا جهلةً ضالينَ(1).

3) تقليدُ الآباءِ السَّادةِ فِي ضلالهمْ:

بينمَا العاقلُ يعلمُ أنَّهُ لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ فلَا يتَّبعُ إلَّا الدِّينَ الصَّحيحَ دينَ الإسلامِ.

فعنْ عمرانَ بنِ الحصينِ والحكمِ بنِ عمرٍو الغفاريِّ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ(2).

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: 170].

فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ(3).

---

(1) فتح القدير، الشوكاني، ٢/٩٤.
(2) الصحيح الجامع 7520.
(3) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/٣٠٨.

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ[1].

فاكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ[2].

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ردٌّ عليهمْ، وبيانٌ لبطلانِ الاعتمادِ فِي الدِّينِ علَى مجرَّدِ تقليدِ الآباءِ[3].

4) تحريفُ كلامِ اللهِ تعالَى:

فهمْ بعدَ مَا عقلوهُ وفهموهُ، يؤوِّلونهُ تبعًا لأهوائهمْ، لكنَّ المسلمَ العاقلَ لَا يحرِّفُ تحريفًا إملائيًّا ولَا لفظيًّا وَلا معنويًّا ولَا يؤوِّلُ تأويلًا فاسدًا، بلْ يتَّبعُ مَا أنزلَ اللهُ تعالَى علَى النبيِّ الأكرمِ ﷺ منْ قرآنٍ وسنَّةٍ.

قالَ تعالَى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: 75].

(1) تفسير السمرقندي، ١/١١٢.
(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(3) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/٣٤٦.

فِي ذلكَ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهمْ علماءُ اليهودِ الذينَ يحرِّفونَ التَّوراةَ فيجعلونَ الحلالَ حرامًا والحرامَ حلالًا اتِّباعًا لأهوائهمْ وإعانةً لراشيهمْ، وهذَا قولُ مجاهدٍ والسدِّي.

والثَّانِي: أنَّهمُ الذينَ اختارهمْ موسَى منْ قومهِ، فسمعُوا كلامَ اللهَ فلمْ يمتثلُوا أمرهُ وحرَّفُوا القولَ فِي إخبارهمْ لقومهمْ، وهذَا قولُ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ وابنِ إسحاقَ[1].

ومعنَى الآيةِ الكريمةِ: أفتطمعونَ (أيُّهَا المؤمنونَ) بعدَ أنْ وصفتُ لكمْ منْ حالِ اليهودِ مَا وصفتُ منْ جحودٍ ونكرانٍ، أنْ يدخلُوا فِي الإسلامِ، والحالُ أنَّهُ كانَ فريقٌ منْ علمائهمْ وأحبارهمْ يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يميلونهُ عنْ وجههِ الصَّحيحِ منْ بعدِ مَا فهموهُ، وهمْ يعلمونَ أنَّهمْ كاذبونَ بهذَا التَّحريفِ علَى اللهِ تعالَى، أوْ يعلمونَ مَا يستحقُّهُ محرِّفهُ منَ الخزيِ والعذابِ الأليمِ[2].

والمرادُ منَ التَّحريفِ أنَّهمْ عمدُوا إلَى مَا سمعوهُ منَ التَّوراةِ، فجعلُوا حلالهُ حرامًا أوْ نحوَ ذلكَ ممَّا فيهِ موافقةٌ لأهوائهمْ، كتحريفهمْ صفةَ رسولِ اللهِ ﷺ وإسقاطِ الحدودِ عنْ أشرافهمْ، أوْ سمعُوا كلامَ اللهِ لموسَى فزادُوا فيهِ ونقصُوا، وهذَا إخبارٌ عنْ إصرارهمْ علَى الكفرِ وإنكارٌ علَى منْ طمعَ فِي إيمانهمْ وحالهمْ هذهِ الحالُ: أيْ ولهمْ سلفٌ حرَّفُوا كلامَ اللهِ وغيَّرُوا شرائعهُ وهمْ مقتدونَ بهمْ متَّبعونَ سبيلهمْ[3].

(1) النكت والعيون، الماوردي، ١/١٤٨.

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/١٧٩.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ١/١٢٠.

5) الاستهزاءُ بدينِ اللهِ تعالَى وشعائرِهِ:

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}[المائدة: 57 – 58].

كان الكفَّارُ إذَا سمعُوا الأذانَ استهزؤُوا بهِ، وإذَا رأوهمْ ركَّعًا وسجَّدًا ضحكُوا واستهزؤُوا بذلكَ، ذلكَ الاستهزاءُ بأنَّهمْ قومٌ لَا يعقلونَ يعنِي: لَا يعلمونَ ثوابهُ[1].

قالَ الكلبيُّ: كانَ إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ وقامَ المسلمونَ إلَى الصَّلاةِ قالتِ اليهودُ: قدْ قامُوا لَا قامُوا، وكانُوا يضحكونَ إذَا ركعَ المسلمونَ وسجدُوا وقالُوا فِي حقِّ الأذانِ: لقدِ ابتدعتَ شيئًا لمْ نسمعْ بهِ فيمَا مضىَ منَ الأممِ، فمنْ أينَ لكَ صياحٌ مثلَ صياحِ العيرِ؟ فمَا أقبحهُ منْ صوتٍ، ومَا أسمجهُ منْ أمرٍ، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ للصَّلاةِ تضاحكُوا فيمَا بينهمْ وتغامزُوا علَى طريقِ السُّخفِ والمجونِ، تجهيلًا لأهلهَا، وتنفيرًا للنَّاسِ عنهَا وعنِ الدَّاعِي إليهَا، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا يرونَ المنادِي إليهَا بمنزلةِ اللَّاعبِ الهازئِ بفعلهَا، جهلًا منهمْ بمنزلتهَا[2].

---

(1) تفسير السمرقندي، ١/٤٠١.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/٢٢٤.

وكذلكَ مَا كانَ عليهِ المشركونَ والكفَّارُ المخالفونَ للمسلمينَ، منْ قدحهمْ فِي دينِ المسلمينَ، واتِّخاذهمْ إيَّاهُ هزوًا ولعبًا، واحتقارهِ واستصغارهِ، خصوصًا الصَّلاةُ التِي هيَ أظهرُ شعائرِ المسلمينَ، وأجلُّ عباداتهمْ، إنَّهمْ إذَا نادُوا إليهَا اتَّخذوهَا هزوًا ولعبًا، وذلكَ لعدمِ عقلهمْ ولجهلهمُ العظيمُ، وإلَّا فلوْ كانَ لهمْ عقولٌ لخضعُوا لهَا، ولعلمُوا أنَّهَا أكبرُ منْ جميعِ الفضائلِ التِي تتَّصفُ بهَا النُّفوسُ، فكيفَ تدَّعِي لنفسكَ دينًا قيِّمًا، وأنَّهُ الدِّينُ الحقُّ ومَا سواهُ باطلٌ، وترضَى بموالاةِ منْ اتَّخذهُ هزوًا ولعبًا، وسخرَ بهِ وبأهلهِ، منْ أهلِ الجهلِ والحمقِ؟!

وهذَا فيهِ منَ التَّهييجِ علَى عداوتهمْ مَا هوَ معلومٌ لكلِّ منْ لهُ أدنَى مفهومٍ[1].

وممَّا سبقَ يجبُ علَى المسلمِ أن يحرصَ علَى استعمالِ عقلهِ فِي التقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى، بعبادةِ التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ تعالَى المنظورةِ والمسطورةِ، عسَى اللهُ تعالَى أنْ ينفعهُ بهذهِ العبادةِ، ويزدادَ إيمانهُ، لكيْ لَا تُعطَّلَ العقولُ عنِ العملِ فتصدأَ وتتعطَّلُ الحواسُ، فيضلَّ عنْ سبيلِ اللهِ ويتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالَى، باتِّباعِ الشَّيطانِ أوْ يُقلِّدَ الضَّالينَ المعاندينَ لدينِ اللهِ تعالَى.

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

مطلبٌ

إذَا اختلفَ العقلُ معَ النَّقلِ وجبَ تقديمُ النَّقلِ علَى العقلِ:

فإنَّ النَّقلَ الصَّحيحَ لَا يعارضُ العقلَ الصَّريحَ، وباجتماعِ النقلِ الصحيحِ والعقلِ الصَّريحِ تُدْرَكُ الحقائقَ الشرعيَّةُ؛ فلَا النَّقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ العَقْلِ، ولَا العقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ النَّقْل، فلَا بدَّ منِ اجتماعهمَا، وبنقصِ واحدٍ منهمَا تَنْقُصُ المعرفةُ بالحَقّ، وليسَ فِي العقلِ الصَّريحِ ولَا فِي شيءٍ منَ النَّقلِ الصَّحيحِ منَ القرآنِ والسنَّةِ مَا يوجبُ مخالفةَ الشَّرعِ أصلاً[1]، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "كلُّ مَا يدلُّ عليهِ الكتابُ والسنَّةُ فإنَّهُ موافقٌ لصريحِ المعقولِ، والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولكنَّ كثيراً منَ النَّاسِ يغلطونَ إمَّا فِي هذَا وإمَّا فِي هذَا، فمنْ عرفَ قولَ الرَّسولِ ﷺ ومرادهِ بهِ كانَ عارفاً بالأدِّلةِ الشرعيَّةِ وليسَ فِي المعقولِ مَا يخالفُ المنقولَ، ولهذَا كانَ أئمَّةُ السنَّةِ علَى مَا قالهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: معرفةُ الحديثِ والفقهِ فيهِ أحبُّ إليَّ منْ حفظهِ، أيْ معرفتهُ بالتَّمييزِ بينَ صحيحهِ وسقيمهِ، والفقهِ فيهِ معرفةُ مرادُ الرَّسولِ ﷺ وتنزيلهِ علَى المسائلِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ أحبُّ إليَّ منْ أنْ تحفظَ منْ غيرِ معرفةٍ وفقهٍ، وهكذَا قالَ عليُّ بنُ المدينيِ وغيرهُ منَ العلماءِ فإنَّهُ منِ احتجَّ بلفظٍ ليسَ بثابتٍ عنْ الرَّسولِ ﷺ أوْ بلفظٍ ثابتٍ عنِ الرَّسولِ ﷺ وحملهُ علَى مَا لمْ يدلَّ عليهِ فإنَّمَا

(1) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

أتيَ منْ نفسهِ، وكذلكَ العقليَّاتُ الصَّريحةُ إذَا كانتْ مقدِّماتهَا وترتيبهَا صحيحاً لمْ تكنْ إلَّا حقاً لَا تناقضُ شيئاً ممَّا قالهُ الرَّسولُ ﷺ، والقرآنُ قدْ دلَّ علَى الأدلَّةِ العقليَّةِ التِي بهَا لمْ تكنْ إلَّا حقاً وتوحيدهُ وصفاتهُ وصدقِ رسلهِ وبهَا يعرفُ إمكانَ المعادِ، ففِي القرآنِ منْ بيانِ أصولِ الدِّينِ التِي تُعلمُ مقدِّماتهَا بالعقلِ الصَّريحِ مَا لَا يوجدُ مثلهُ فِي كلامِ أحدٍ منَ النَّاسِ"[1].

وإنْ تعارضَ النَّقلُ والعقلُ فِي الظَّاهرِ؛ قُدِّمَ النَّقْلُ علَى العقلِ؛ لأنَّ النَّقْلَ عِلْمُ الخالِقِ الكامِلِ، والعَقْلَ عِلْمُ المخلوقِ القاصِرِ، وهذَا التَّعارضُ يكونُ بحسبِ الظَّاهرِ لَا فِي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّهُ لا يمكنُ أبداً حصولُ تعارضٍ بينَ النَّقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ، وإذَا وجدَ تعارضٌ فإمَّا أنْ يكونَ النَّقلُ غيرَ صحيحٍ أوِ العقلُ غيرَ صريحٍ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: "مَا جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهُ حقٌّ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، وهوَ موافقٌ لفطرةِ الخلائقِ، ومَا جعلَ فيهمْ منَ العقولِ الصَّريحةِ، والقصودِ الصَّحيحةِ، لَا يخالفُ العقلَ الصَّريحَ، ولَا القصدَ الصَّحيحَ، ولَا الفطرةَ المستقيمةَ، ولَا النَّقلَ الصَّحيحَ الثَّابتِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّمَا يظنُّ تعارضهَا: منْ صدَّق بباطلٍ منَ النُّقولِ، أوْ فهمَ منهُ مَا لمْ يدلَّ عليهِ، أوِ اعتقدَ شيئًا ظنَّهُ منَ العقليَّاتِ وهوَ منَ الجهليَّاتِ، أوْ منَ الكشوفاتِ وهوَ منَ الكسوفاتِ إنْ كانَ ذلكَ معارضًا لمنقولٍ صحيحٍ

(1) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3 /64 – 65) مختصرا.

وإلَّا عارضَ بالعقلِ الصَّريحِ، أوِ الكشفِ الصَّحيحِ، مَا يظنُّهُ منقولًا عنِ النَّبيِّ ﷺ، ويكونُ كذبًا عليهِ، أوْ مَا يظنُّهُ لفظًا دالًّا علَى شيءٍ ولَا يكونُ دالًّا عليهِ"[1].

والعقلُ كالبَصَرِ، والنقلُ كالنُّورِ؛ لَا يَنتفعُ المُبْصِرُ بعينِهِ فِي ظلامٍ دامِسٍ، ولَا يَنتفِعُ العاقلُ بعقلِهِ بلَا وَحْيٍ، وبِقَدْرِ النُّورِ تَهْتَدِي العَيْنُ، وبقدرِ الوحيِ يَهتَدِي العَقْلُ، وبكمالِ العقلِ والنقلِ تَكتمِلُ الهدايةُ والبصيرةُ؛ كمَا تَكتمِلُ الرؤْيةُ حِينَ الظَّهِيرَةِ، فالمؤمنونَ أبصرُ النَّاسِ بالحقائقِ الشرعيَّةِ لجمعهمْ بينَ النقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ قالَ تعالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 122]، وقالَ سبحانهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[محمد: 14].

فيجبُ اتِّباعُ الوحيِ منَ الكتابِ والسنَّةِ وعدمِ الاستغناءِ عنِ الوحيِ بالعقلِ وحدهُ، ومَنْ قالَ: إِنَّهُ يَهتَدِي إلَى اللهِ بعقلِهِ المُجرَّدِ بلَا وحيٍ؛ فهوَ كمَنْ قالَ: إنَّهُ يَهْتَدِي إلَى طريقِهِ بعينِهِ المُجرَّدَةِ بلَا ضياءٍ، وكُلٌّ منهمَا جاحدٌ لقطعيٍّ ضروريٍّ، والأوَّلُ بلَا دِين، والثَّانِي بلَا دُنْيَا، والأوَّلُ بلَا بصيرةٍ، والثَّانِي بلَا بصرٍ، قالَ تعالَى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: 46].

---

(1) الرسالة العرشية (1 /35).

والوحيُ هوَ الذِي يَهْدِي الأنبياءَ، ويَهْدِي أَتْبَاعَهُمْ، ويدلُّ علَى هذَا قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 50]، وقولهُ سبحانهُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: 54]، فلَا هدايةَ إلَّا لمنْ اتَّبعَ الوحيَ، ومنْ لمْ يتبعهُ فقدْ ضلَّ ضلالاً مبيناً، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: 136]، وقالَ سبحانهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: 36].

وقدْ ضلَّ مَنْ يقولُ: لَا أُصدِّقُ بأيِّ حديثٍ إلَّا إذَا أدرَكَهُ عقلِي، ومَا لَا يُدْرِكُهُ لَا أُؤمِنُ بهِ؛ فإنَّ هذَا قَدَّمَ العقلَ القاصرَ النَّاقصَ الذِي يجهلُ أكثرَ ممَّا يعلمُ علَى الحديثِ الصَّحيحِ الذِي جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

فالمؤمنُ العاقلُ يقدِّمُ الحديثَ الصَّحيحَ علَى كلِّ عقلٍ، فمَا لَا يُدرِكُهُ العقلُ لَا يَعْنِي عدَمَ وجودِهِ، ولكنَّهُ هوَ غيرُ مُدْرِكٍ لهُ، فللعقلِ حَدٌّ يَنتهِي إليهِ، كماَ أنَّ لِلْبَصَرِ حَدًّا ينتهِي إليهِ لَا ينتهِي الكونُ والوجودُ بنهايتِهِ، وللسمعِ حَدٌّ لَا تنتهِي الأصواتُ بنهايتِهِ؛ فللنَّمْلَةِ صوتٌ لَا يُسْمَع، وفِي الكونِ فَضَاءٌ وكواكبُ ونجومٌ لا تُرَى.

ومعلومٌ أنَّ النَّصوصَ الشرعيَّةَ منهَا مَا يَفْهَمُهُ غالبُ النَّاسِ، ومنهَا ممَّا لَا يفهمهُ إلَّا العلماءُ، ومنهَا مَا لَا يفهمهُ ويعرفُ دلالتهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، فيكونُ موقفنَا هوَ العملُ بالمحكمِ والوقوفُ عندَ المتشابهِ، والمتشابهُ: هوَ مَا لَا يعلمهُ إلَّا الرَّاسخونَ

منْ أهلِ العلمِ، وأمَّا جعلَ هذَا المتشابهَ أصلاً، أوِ التَّشكيكِ فِي المحكماتِ بضربهَا بالمتشابهاتِ؛ فهذَا سبيلُ أهلِ الغيِّ، يقولُ اللهُ سبحانهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران: 7].

والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ بحالٍ، ومتَى توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ نَصَّاً منَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الثَّابتةِ خالفَ للعقلَ؛ فليتهمْ عقلهُ هوَ، والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ تأتِي بمَا تَحَارُ فيهِ العقولُ، ولَا تأتِي أبداً بمَا تُحِيْلُهُ العقولُ، كمَا قَرَّرَ ذلكَ المحقِّقونَ منَ العلماءِ، بمعنَى أنَّ الشَّريعةَ لَا تأتِي بمَا تعدُّهُ العقولُ السَّليمةُ أمرًا مستحيلاً.

ويجبُ التَّسليمُ للنَّقلِ الصَّحيحِ أخباراً وأحكامًا؛ سواءٌ عَرَفْنَا العِلَّةَ أوْ لمْ نَعْرِفْهَا، قالَ الزُّهرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: "مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلَى رسولِ اللهِ ﷺ البلاغُ، وعلينَا التَّسليمُ".

فبعضُ القضايَا العقليَّةِ الثَّابتةِ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ لَا تدركهَا بعضُ العقولِ لعدمِ فهمهَا لهَا، فكيفَ بالقضايَا التِي لَا تحيطُ بهَا العقولُ وهيَ كثيرةٌ جداً ممَّا نراهُ ونشاهدهُ؟! ومنْ أقربهَا: سببُ تثاؤبِ بعضِ النَّاسِ عندَ تثاؤبِ شخصٍ آخرَ فِي المكانِ الذِي هوَ فيهِ!! فلَا تعرفُ العقولُ سببَ ذلكَ، ومنْ تكلَّمَ فِي سببِ ذلكَ بالظنِّ لَا يمكنهُ أنْ يطلبَ منْ جميعِ النَّاسِ أنْ يُسَلِّمُوا بتفسيرهِ، ومثلُ ذلكَ الرُّوحُ؛ فلَا تحيطُ العقولُ بحقيقتهَا، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85][1]، قالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ: "أيْ: هوَ

منْ جنسِ مَا استأثرَ اللهُ بعلمهِ منَ الأشياءِ التِي لمْ يُعلمْ بهَا عبادهُ..." إلَى أنْ قالَ: "ثمَّ ختمَ سبحانهُ هذهِ الآيةَ بقولهِ سبحانهُ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]، أيْ: أنَّ علمكمْ الذِي عَلَّمَكُمْ اللهُ ليسَ إلَّا المقدارَ القليلَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ الخالقِ سبحانهُ، وإنْ أوتيَ حظاً منَ العلمِ وافراً، بلْ علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ليسَ هوَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ اللهِ سبحانهُ إلَّا كمَا يأخذُ الطَّائرُ فِي منقارهِ منَ البحرِ، كمَا فِي حديثِ موسَى والخضرِ عليهمَا السَّلامُ"[2].

وبالجملةِ يجبُ علَى المسلمِ أنْ يُقَدِّمَ قولَ اللهِ ورسولهِ علَى كلِّ قولٍ، وعلَى كلِّ قياسٍ وعلَى كلِّ ذوقٍ وعلَى كلِّ استحسانٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات: 1]، قالَ ابنُ كثيرٍ فِي تفسيرهِ: "أيْ: لَا تسرعُوا فِي الأشياءِ بينَ يديهِ، أيْ: قبلهُ، بلْ كونُوا تبعًا لهُ فِي جميعِ الأمورِ، وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: 1]: لَا تقولُوا خلافَ الكتابَ والسنَّةِ.

---

(1) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.
(2) فتح القدير للشوكاني (3 /363).

وقالَ الضحَّاكُ: لَا تقضُوا أمرًا دونَ اللهِ ورسولهِ منْ شرائعِ دينكمْ، وقالَ سفيانُ الثَّورِي: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: 1]: بقولٍ ولَا فعلٍ".

ومنْ أشكلَ عليهِ حديثٌ صحيحٌ؛ فلَا يبادرْ إلَى إنكارهِ وتكذيبهِ وردِّهِ، بلْ يرجعُ إلَى كلامِ أهلِ العلمِ فِي شرحهِ وتوجيههِ، وروَى ابنُ ماجهْ بسندٍ صحيحٍ عنْ عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "إذَا حدَّثتكمْ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا، فظنُّوا بهِ الذِي هوَ أهناهُ، وأهداهُ، وأتقاهُ"[1].

---

(1) صحيح ابن ماجه (19)، وأخرجه أحمد (986)، الطيالسي (101)، وابن بطة في ((الإبانة)) (103) بنحوه.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّ يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين.

تمَّ البحث والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات